سلمان العيد

مواقف تعانق الزمن

يوميات مدرس مصري في حارة الحوامي

محطّات الوصول

لقد جئت الى السعودية بعد سنة من تخرّجي من جامعة القاهرة (تخصص علوم)، وكان غرضي الأول والأخير هو أن امضي سنوات قليلة أحصل خلالها على مبلغ مالي يعينني على متطلبات الحياة في مصر، وأصل إلى وضع أفضل من الناحية المادية، خاصة في ظل الارتفاع اليومي المتصاعد للأسعار، فالحياة اليومية ـ خصوصا في مصر ـ تزداد صعوبة كل يوم، لذلك ليس بمستغرب أن تجد الآلاف بل الملايين من المصريين ـ وأنا منهم ـ يتواجدون في العديد من الدول الخليجية مثل السعودية، على اعتبار أن الدخل في السعودية أفضل، بحساب فوارق العملة والصرف.. بالتالي فالعمل في السعودية يعد فرصة ثمينة، طالما بذل العديد من المصريين جهودا ودفعوا أموالا لهذا الهدف.. وشاءت الأقدار ـ وبفضل من الله ـ التحقت بالتدريس في مدرسة تاروت المتوسطة تحت إشراف المدير الأستاذ إبراهيم بن عبد الرزاق الهارون، هذا الرجل التربوي الفاضل، الذي عرف بحسن إدارته وتحمّله للمسؤولية، لذلك لم يكن غريبا أن يتولى في وقت واحد إدارة مدرستين في جزيرة تاروت، (المتوسطة و الثانوية).. وشاءت تقديرات المولى جل شأنه أن أسكن في حارة تدعى "الحوامي"، في شقة مستأجرة ضمن أحد المنازل، هذه الحارة التي تقع في أقصى جنوب شرق تاروت، التي هي جزء من جزيرة تاروت التي تضم عدة بلدات (دارين، سنابس، الربيعية، الزور)، أضافة الى تاروت نفسها، هذه الحارة حملت معها جمال الطبيعة، وتفشّت وسط أهلها طيبة أهل البحر، وحسن سجية الفلاحين والمزارعين، وحماس العمال والكسبة .. كنت قد قرّرت أن اقضي سنة أو سنتين، إذا بي أبقى خمس سنوات، في المدرسة نفسها، وفي الحارة نفسها، التي

صادف بأنها تقع في منطقة قريبة من المدرسة، مما سهّل علي من عملية الوصول من وإلى المدرسة.

نقلنا سائق سيارة أجرة من مطار الظهران، إلى منطقة أخرى يطلق عليها الدمام، (الظهران والدمام هما من أبرز مدن المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية)، وأنزلنا في موقع تعارف عليه الناس بأنه المحطة (استيشن)، وهو عبارة عن مكان تقف سيارات الأجرة واحدة تلو الأخرى، لا تتحرك إلّا بعد ان تملأ بالركاب، وعددهم ستة ركاب، ومن هذه المحطة الواقعة عند شارع الملك سعود بالدمام يتم الانتقال إلى محطة أخرى في القطيف (مدينة أخرى من مدن المنطقة الشرقية) على شارع الملك عبدالعزيز ينقل الركاب إلى تاروت، وبالطريقة نفسها. لقد لجأنا إلى طريقة سيارة الأجرة ــ الترانزيت، ولم نأخذ سيارة تنقلنا مباشرة الى تاروت لا لشيء إلا أننا لم نجد سيارة خاصة حينها تنقلنا من المطار الى تاروت، وإنما جاء سائق سيارة أجرة عامة (تاكسي) أبدى استعداده لنا بأن يوصلنا الدمام، وهناك يمكننا الحصول على سيارة أجرة تنقلنا الى القطيف، ومنها الى تاروت. وهذا ما تم بالفعل إذ اقلّنا سائق أجرة خصوصي قال لنا أنه من تاروت يدعى عبدالرحيم بن حمود، وكان رجلا لطيفا، ضخم الجثة، مؤدبا دمثا في أخلاقه، وهناك أنزلنا في محطة القطيف ـ تاروت، ليصادف أن يقلّنا سائق أجرة آخر يدعى "عبدالرحيم" أيضا فقد بادرنا بالقول:

ـ معكم أخوكم عبدالرحيم

وبابتسامة مصرية قلت له:

ــ كنا مع شخص آخر يدعى عبدالرحيم، يعنى كل سائقي سيارات الأجرة في السعودية يملكها أشخاص اسمهم عبدالرحيم.

ابتسم قائلا:

ــ ذاك زميلي في المهنة اسمه عبدالرحيم بن حمود، أما أنا فإسمي عبدالرحيم البصري، أنا متخصص فقط وفقط في طريق تاروت ـ القطيف

لقد لفت نظرنا هذا السائق، إذ لأول مرة في حياتي أرى سائق أجرة عامة أنيقا وبصورة لافتة، حتى أن سيارته ـ وهي سيارة أجرة ـ تلمع ، وكل شيء فيها سليم ونظيف، بل في غاية النظافة والأناقة، وكأنك في غرفة نوم مجهزة بكامل أثاثها وأنوارها.

ولأن الرجل "لطيف" واجتماعي أردت أن أفتح معه موضوعات مهمة، لعله يساعدني على الوصول إلى الموقع الذي أريد، وقبل أن أسأله عن أي شيء بادرني بالسؤال عن المكان الذي أقصده، وأريد النزول فيه فقلت:

ـ أريد تاروت

فرّد عليّ:

ـ تاروت كبيرة، تضم الربيعية وسنابس ودارين والزور، إضافة إلى تاروت نفسها، فهناك تاروت الجزيرة، وهناك تاروت البلدة فأيّهما تريد؟

ـ تاروت البلدة

ـ جميل، حتى تاروت البلدة، هناك أحياء، تبدأ من الشمال (الخارجية وفريق الأطرش)، ثم في الوسط هناك (أرض الجبل والدشة والنجيمة)، وكل حي هناك جهات وأسماء، وهناك في الغرب حي يقولون عنه انه الوقف، وفي الجنوب هناك الحسينية والحوامي، يضاف لهذه الأحياء جميعا حي الديرة ، فهو الأقدم من بين هذه الأحياء.

ـ لقد قلت قبل قليل عن حي إسمه الحوامي

ـ نعم

ـ نريد هذا الحي، منزل عبدالحسين بن حمود

هنا ابتسم صاحب السيارة الأجرة، وقال:"سوف أوصلكم إلى المنزل المطلوب، لأنه قرب منزلنا، بل هو بيت جارنا، لأني أنا من أهل الحوامي، والمنزل المذكور أعرفه جيدا، ولكن عليكم الانتظار معي لإيصال الركاب، فبعضهم يريد الربيعية، وبعضهم يريد

سنابس، ومنها تتعرفون على المناطق، وبعدها تصلون إلى المكان المطلوب".

تفاعلنا مع الفكرة، رغم شعورنا بإرهاق الترانزيت الهوائي، ونظيره الأرضي، ولكن مادام الرجل سوف يوصلنا الى مقرنا فلا بأس، بل هو الأمر الطبيعي أن نستجيب لذلك، لاختصار الوقت، ولأن الوقت كان ليلا ولا نعلم هل نحصل على سيارة توصلنا أم لا؟ خاصة وقد فهمنا أيضا من هذا السائق الأنيق لن يأخذ علينا شيئا من تكاليف الرحلة، والتي تتجاوز ريالين لكل راكب، فلا يمنع في مثل هذا الوضع ان نعطيه عشرة ريالات مقابل الجهد الذي سوف يبذله معنا.

لقد انتقل الى بلدة قال لنا بأنها الربيعية وأنزل راكبا على مدخل البلدة، ثم دخل منطقة أخرى تدعى سنابس وهي ليست بعيدة عن أختها إلا بشارع واحد وأنزل البقية، ثم عاد من الطريق نفسه، ثم جاء بنا إلى حارة الحوامي فوجدناها حارة محاطة بالنخيل، وما بين النخيل هناك منازل مبنية بعضها قديم والبعض الآخر حديث، وهناك بعض البيوت مبنية من سعف النخل ومن الصفيح.. ومن الواضح أن الناس في هذه البلدة تعرف بعضها، فأنزلنا سائق الأجرة الذي رفض أن يأخذ شيئا إضافيا أكثر من أجرته وأرشدنا على بيته الذي يقع ضمن زقاق ضيّق لا تدخل إليه السيارة، لكنه يضع سيارته في موقع بعيد نوعا ما، فنزل ونحن نراقب مشيته إذا به أنيق ورشيق، ومن الواضح أنه شخص يعتني بصحته جيدا، وتبادر إلى ذهننا بأنه شخص رياضي، وقد تم إخبارنا ـ فيما بعد ـ بأنه من أبرز وأشهر لاعبي كرة القدم في تلك الحارة.

وحسب الأوراق والعنوان الذي لدينا، سكنّا في شقة في عمارة صغيرة على الشارع العام تعود لملكية شخص يدعى عبدالحسين بن حمود، والذي وجدناه شخصا عمليا، يدير أعماله بكل جدية وإخلاص، وظهر لنا أنه قريب سائق الأجرة الأول عبدالرحيم بن حمود، فهو ابن عم له، وكان هذا الأخير (السائق) ساكنا في أحد

منازله، الواقع في أحد زقاقات حارة الحوامي، التي لا تختلف كثيرا عن الحارات القديمة التي لدينا في مصر.

بعد أن استقر بنا المقام في الشقة المستأجرة، ظهرت في الصباح الباكر وهدفي الذهاب إلى المدرسة، فلم يكن لي أحد أن أسأله سوى الحاج عبدالحسين نفسه الذي حدّد موقعها على طريق دارين، وأرشدني على الطريق الذي يؤدي لها، مشيا على الأقدام، ويتطلب ذلك حوالي الربع إلى النصف ساعة، ويمكن الذهاب لها بسيارة في غضون بضع دقائق.. سرت على الطريق الذي أرشدني إليه، وإذا بي أسير في منطقة زاهرة بالخضرة، مفعمة بالحياة وزقزقة العصافير وتغريدات البلابل، ونياح طيور النخيل (الفواخت)، وبين لحظة وأخرى تسمع نباحا لكلاب موجودة في مكان ما داخل المزارع على ذلك الطريق، وعواء أبناء آوى، ولكن يصعب على أحد تحديد موقع ذلك النباح أو ذلك العواء.. فقد تولّد لدي انطباع أولي بأن هذه المنطقة ليست نفطا، وليست صحراء قاحلة، وأهلها ليسوا من البدو الرحل والرعاع الرعاء، كما كان التصور الأولى لدينا ـ نحن المصريين ـ فالسعودية في منظورنا هي بلاد حارّة، بل شديدة الحرارة، ولا ميزة لها سوى أنها بها الذهب الأسود، والحياة ـ كما نظنّها ـ صحراوية معبأة بالغبار، وعلى عكس ذلك وجدتني وأنا أنتقل من الحوامي إلى المدرسة على طريق دارين أمام عدة بساتين مثمرة حيّة، بل مساحات كبيرة وعريضة من الأراضي الزراعية، فوجدنا أشجارا ليست موجودة لدينا في مصر، وحتى النخيل التي في السعودية تختلف عن نخلينا في مصر.. إن هذا الطريق المؤدي إلى المدرسة هو طريق جميل تقطعه ولا تشعر بتعب، خصوصا في النهار، فترى في هذا الطريق جملة من الأشجار ــ عرفتها فيما بعد ـ كالنخيل والموز واللوز السعودي والسدر والرمان والتين والعنب، فضلا عن أشجار أخرى، غير مثمرة لا نعرف أسماءها، وحتى السعوديين أنفسهم لا يعرفون ذلك،

وربما هي معروفة لدى المتخصصين في الزراعة، فبعضها تنتج علفا أخضر للماشية اصطلح عليه إسم "النوّام"، وبعضها تعارف الناس عليه باسم "غسال يد الزهراء"، فضلا عن اشجار متخصصة لإنتاج الورد الجوري وغيره من الزهور.. وعلى هذا الطريق شاهدنا بإم اعيننا هناك مزرعة أو غابة أطلقوا عليها عين أم عريش، وهي عبارة عن مزرعة كبيرة بها عين ارتوازية ذات ماء ساخن عذب، هي عيّنة واحدة من عيون تلك المنطقة، هذه المزرعة يقصدها العوائل للتنزه، ويقصدها الشباب للمذاكرة أيّام الاختبارات، والتمشية خلال الاجازات.. وبالفعل اصابتني الدهشة منذ اليوم الأول لذهابي إلى المدرسة، حيث لم اتوقع أن أشهد هذا المنظر في السعودية، وبحكم كوني مصريا فأنا متعود على الحياة الزراعية، فليس غريبا علي المشي بين المزارع والبساتين، ولكن وجود هذا الجو وهذا المنظر وأنت بعيد عن أهلك ووطنك يساعد في تهوين أمر الغربة، لذلك وجدتني متفائلا بالحياة في تاروت، وتحديدا في حارة الحوامي.

وهكذا، لم تخذلني تاروت، ولم تزعجني الحياة في الحوامي، حيث إنني وفي كل يوم أخرج صباحا واقطع المسافة مشيا على الأقدام، ويحدث أن طالبا أو معلّما يتفضل عليّ بأن ينقلني إلى المدرسة، خاصة إذا كان الجو ممطرا حيث أن المشي على طريق زراعي يبدو من الصعوبة بحال، إذ لا تصل الى المكان الذي تريد إلا وبعض آثار المطر تكون بادية على الملابس، وتبدو في منظر غير لائق أمام الطلبة، هذا قبل أن يكرمنا الله ونشتري سيارة نقضي من خلالها حاجاتنا اليومية.

هذا في الضفة الشرقية من الطريق، وأما في الجهة الأخرى منه فهناك جملة من البساتين تنتج أنواعا من الثمار، وتعطي منظرا جميلا ورائعا، وتعكس حياة معينة وتاريخا خالدا مرّت به هذه المنطقة، يزداد جمالا إذا عرفنا بأن مسافة ليست طويلة وتجد نفسك أمام منظر لا يقل جمالا عن تلك البساتين الا وهو البحر، الخليج العربي الذي هو جزء من المحيط الهندي.. ففي الصباح الباكر

ولمجرد انطلاقي ذاهبا الى المدرسة أرى عينات ونماذج من الناس متوجهة إلى أعمالها، فأرى عددا من الفلاحين يطلق على الواحد منهم في تاروت صفة "نخلاوي" كونه يتعامل مع النخلة في مهنته، وتجده في الصباح الباكر يمشي حافي القدمين حاملا شيئا يتم صنعه محليا وهو وسيلة الصعود على النخيل الطوال وما أكثرها في تاروت، ويسمى بـ "الكر" بفتح الكاف، مع وسيلة القص وهي "المنجل"، مع سلة من نوع خاص كبيرة الحجم تختلف عن السلال التي لدينا وتسمى هنا بـ "المخرفة" وبها يحمل الثمار والرطب والتمر.. كما أرى عددا من الرجال من الواضح أنهم صيادون، فكل واحد يحمل معه شباك صيده، وسلة كبيرة خصصت لحمل المنتج اليومي من الصيد، وهم متجهون الى البحر مشيا على الاقدام، أو أن بعضهم اتخذ وسيلة الحمار مع العربة، أو حتى الحمار الخالي من العربة.. عدا أن هناك اشخاصا يقصدون مواقع العمل في مواقع النفط، وهي بعيدة عن جزيرة تاروت، قيل أن البعض كان في وقت ما يذهب لها مشيا على الأقدام، هذا فضلا عن الطلاب والطالبات، والجميع يقصد عمله مشيا على الاقدام، والقليل من الناس في ذلك الوقت ممن يملكون سيارات خاصة، لذلك وجدنا أن عددا من سائقي السيارات الأجرة يعملون ويأخذون نصيبهم الوافر في عملية النقل من وإلى جزيرة تاروت، وينعدم النقل الداخلي بين الأحياء.

ذات مرة طرأت لي معاملة تقتضي أن أذهب إلى القطيف، وهي مركز القطيف الكبرى التي تشمل كافة مناطق (القطيف، وسيهات، وصفوى، وتاروت، والعوامية، والقرى المحيطة بالقطيف) هذه المدينة تبعد عن جزيرة تاروت بمسافة أكثر من 5 كيلومترات ويصعب الذهاب لها مشيا على الأقدام.. هذه المعاملة لإنهاء بعض الإجراءات وتوقيع بعض الأوراق الرسمية، إضافة الى تحويل مبلغ من المال الى مصر، ولم يكن حينها في تاروت ـ فضلا عن الحوامي ـ بنك، فاضطررت أن أذهب الى القطيف، وهذا يتطلب

الاستعانة بأحد سائقي الأجرة، فكان أقرب شخص عرفته يقدم هذه الخدمة هو عبدالرحيم البصري، فذهبت إليه في منزله، واتفقت معه على الموعد، فجئت له وتوجهنا إلى القطيف، فسألني السائق عن إسمي فقلت :"عبدالسميع عطا الله من مصر أعمل مدرس علوم في مدرسة تاروت المتوسطة"، فذكرني على الفور، فهو الذي أوصلني إلى مقرّ سكني، واستغربت كيف نساني بهذه السرعة، ولما سألته عن ذلك قال لي :"يمر عليّ في اليوم الواحد العشرات من الناس، البعض أذكره والبعض لا أذكره".. هنا سألته:

ـ كأنك شخصية رياضية، فمن الواضح أنك مزاول للرياضة.

فرد علي متبسما:

ـ نعم لقد كنت ألعب كرة القدم، لكني توقفت عنها لظروف العمر والعمل

ـ وهل تعمل منذ زمن طويل في هذا الشأن أم لك مهنة أخرى؟

ـ لا .. لا .. أنا أعمل في هذه المهنة لأكثر من عشرين عاما، فنحن عدد من سائقي الأجرة معروفون على مستوى المنطقة، نقوم بهذه المهمة فالناس تعتمد علينا في هذا الشأن، فالكثير ممن يتعارضون بالولادة أو المرض فنقوم بنقلهم الى المستشفيات في الدمام والخبر والقطيف.. بعضهم يأتون لنا في ساعات متأخرة من الليل، فنقوم بالواجب تجاه الناس.

وجرت معه أحاديث ودية عديدة عن الكثير من شؤون المجتمع، الى أن وصلت الى الموقع المحدد، وسألت عن البنك فأرشدني عليه.. وبعد أن أنهيت معاملتي في البنك، وكنت على عجلة من أمري وأريد العودة بسرعة إلى تاروت، فتوجهت إلى موقع سيارات الأجرة على خط تاروت ـ القطيف، فبحثت عن صاحبي السائق نفسه فلم أجده لكني وجدت سائق أجرة آخر، وهو متوجه الى تاروت أيضا، فما كان منّي ألا أن صعدت السيارة وجلست بجنب السائق، الذي بدا أقل أناقة من عبدالرحيم البصري، لكنه يحمل روحا تشبه روحه، وأخلاقا لا تختلف عن أخلاقه، وحرّك سيارته دون أن

يكمل نصابها، ومضى وما أن سرينا باتجاه تاروت اذا قد به أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها وظل يكرع دخانها ويخرجه من فمه وأنفه وسط نشوة يشعر به، وأذى وضيق اشعر به، ازداد ضيقي وقلقي وألمي الداخلي حينما وجدته يشعل سيجارة وراء أخرى، فصرت في وضع لا أحسد عليه، كوني متضايقا من الدخان، وفي الوقت نفسه لا استطيع أن أطلب منه التوقف عن التدخين، خاصة وأن باقي الركاب ساكتون وكأنهم راضون بالوضع، فما كان منّي الا الصمت، وما لفت نظري حيال هذا السائق أنه كثير السعال والعطس والبصاق الناتج عن البلغم، وذلك بسبب التدخين، بعكس سلفه الذي لا يدخن، وكانت رائحة العطر تفوح من ملابسه وبدنه وسيارته، وقد وجدت هذا الأخير أقل أناقة، واضعا غترته أو شماغه على كتفه، مكتفيا بوضع كوفية بيضاء نظيفة على رأسه، ولأن الطريق يحتاج إلى نصف ساعة، ولأني أريد أن أمنعه عن التدخين، فقررت أن أدخل معه في حوار طريق أشغله عن الدخان والسيجارة، فسألته عن إسمه فقال:"حسن البدراني من أهل الربيعية، أعمل على هذا الخط منذ عشر سنوات"، فبادرته:

ـ أنتم هنا كم سائق تاكسي؟

ـ سؤالك غريب ياباشا

ـ ما غريب إلا الشيطان!!

ـ نعم ما غريب إلا الشيطان، اهل البلاد (أقصد أهل تاروت) هم خمسة إلى ستة، وصلوا في وقت ما الى عشرة، عدا أن بعضهم أنتقل الى العمل في الأرامكو (شركة الزيت)، التي تستقبل حتى الأطفال، فتركوا المهنة، أو صاروا يزاولونها في الفترات المسائية. هذه المهنة في طريقها إلى الانقراض لأن الكثير من الناس بدأوا في تملّك السيّارات، أي أن كل واحد سوف تكون له سيّارة ولن يبقى لنا شيء.

هنا قلت له :

ـ وهل الأمور ماشيه معاكم؟

ـ الحمد لله، وبفضله ثم بوجودك أنت وأمثالك من الطيبين.

وبعد لحظات ساد صمت طويل حتى وصلنا الى الشارع العام في تاروت، امام قهوة العقيلي وقرب حمام تاروت، فنزلت وواصلت مشواري مشيا على الاقدام إلى أن وصلت مقر سكني في الحوامي.

وكانت تلك أول رحلة لي خارج تاروت، التي بدت لي ـ وكما قيل لي أيضا ـ أنها جزء من منظومة متكاملة، تسمى القطيف، والتي تسمّى قديما بـ "الخط" وإليها تنسب الرماح الخطّية المشهورة لدى العرب، وهذه الخط ـ كما قيل لنا ـ بأنها جزء ايضا من البحرين الكبرى، التي تضم البحرين الحالية وتسمى "أوال"، والأحساء وتسمى "هجر" وقد سمعت من أحدهم يحدد مساحة "الخط" فقال لي بيت شعر متداول يقول فيه: "والخط من "صفواء" حازوها فما .. أبقوا بها شبرا الى الظهران"، وهذا يعني ان الخط هي المنطقة الشرقية كلها، اختصرت الى القطيف الحالية.

بين تاروت ودارين

حينما أذهب إلى المدرسة في الصباح الباكر أجدني أسير مع بعض الطلاب، وأحيانا مع بعض المعلّمين.. المدرسة كانت قريبة من حارة الحوامي، وربما كانوا من أكثر الناس ارتياحا في عملية الوصول اليها، بخلاف الكثير من الطلاب الذين يأتون من أقصى شمال تاروت إلى أقصى جنوبه، وبعضهم يأتون من دارين، ومن سنابس ومن الربيعية، وكلها مناطق بعيدة عن المدرسة، فلا يمنعهم برد أو مطر أو رطوبة، أو ضباب، أو أي شيء من تقلبات الطقس، فوق ذلك لم تكن إدارة المدرسة بقيادة الأستاذ الهارون تقبل عذر أحد من الطلاب في مخالفة النظام في الغياب والتأخير عن موعد الطابور الصباحي، فترى هذا الاستاذ على مكانته الإدارية يأتي يوميا يراقب الطلاب في الطابور، ويرصد مجموعة التزامات، فينظر الى رؤوس الطلبة، ويتفقد كل من كان شعره قد طال عن المعتاد فيطلب منه ألا يأتي غدا إلا وقد حلق شعره، فإن حضر ولم ينفذ هذا الأمر طالته "علقة" غير طبيعية في البرد القارس، في الصباح الباكر، أمام جموع الطلاب، ويطلب منه أن يحضر ولي أمره، وفي كل الأحوال عليه أن يحلق شعر رأسه، حتى لو كان ذلك الشعر جميلا ومسرّحا ونظيفا.. كما ينظر المدير إلى الأيدي ويرى الأظافر هل هي في وضع سليم؟ أم طالت وباتت في وضع غير مقبول، ويحدث أن يلتزم الطلاب بتقليم أظافرهم، ويوفر لذلك مقصا، فتقص اظافرهم أمام الطلاب قبل الدخول الى المدرسة، فتفوت على البعض فرصة إطلاق أظافر أحد الأصابع ـ خصوصا الخنصر ـ كنوع من الموضة لدى بعض المراهقين..ويلقي نظرة ثالثة على الأرجل فلديه قانون لم يطبق في أي مؤسسة أخرى غير مدارس الهارون وهي منع لبس حذاء الحمام البلاستيكي، أو الحذاء الذي يلبسه الحجاج أثناء لبسهم إحرام الحج، ويسميه أهالي تاروت

"نعال زنوبة" وكل من يأتي بهذا الحذاء ينال عقوبة التهزئة والإهانة قبل الضرب المبرح على الرجل واليد.

وذات مرّة قام طالب بمناقشة المدير حينما قال له:" لابس زنوبة وأنت في مدرسة، وهذا حذاء حمامات"، فردّ عليه قائلا وبكل جرأة :"أنا لا أملك قيمة الحذاء الذي تريده المدرسة، فهذا الحذاء بريالين، والحذاء المطلوب بعشرة ريالات".. هنا ضحك المدير ضحكة عالية، وبصورة مفاجئة غير متوقعة، ولم يشأ أن يدخل في جدال معه، بل أخرج من جيبه عشرة ريالات وأعطاها ذلك الطالب، الذي أخذها ـ بكل صلافة ـ ووضعها في جيبه، ووعد المدير بأن سوف يأتي غدا بحذاء حسب طلب المدير.

ورغم إن هذا الموقف أراد الطالب منه إحراج المدير، لكنه كان مثار استغراب الجميع، خاصة المدرسين، وبالأخص غير السعوديين مثلي، إذ لم يتصور أحدنا عائلة سعودية فقيرة، فضلا عن أن الفقر قد بلغ بها بحيث لا تستطيع أن تشتري لابنها حذاء بعشرة ريالات، والغريب في الموقف ان المدير دفع بالعشرة ريالات، وكأنه يعرف أو يعلم أن من الطلبة من لا يستطيع ذلك، وان خمسة ريالات أو عشرة ريالات قد ترهق عائلة.

هذا الموقف أثرته مع أحد المدرسين السعوديين القلائل في المدرسة اثناء عودتنا على الطريق الزراعي، الذي يحلو الحديث خلاله، فقال لي بالحرف الواحد:" نعم لدينا فقراء يسكنون العشش وبيوت الصفيح، ولدينا من الطلاب من يعمل في العصر، ويستغل الإجازات الإسبوعية للالتحاق بأي عمل يسد رمقه، ويوفر له قيمة المصاريف".

هنا ازددت حيرة واستغرابا وسألته:

ـ شاب عمره أقل من 15 عاما ويشتغل؟

فرد علي:

ـ يدرس ويشتغل، ويتفوق دراسيا بعد!!

ـ إلى هذا الحد هو محتاج؟

ـ قد يكون محتاجا وفقيرا، وقد لا يكون !

ـ لم أفهم، ممكن أن تشرح لي هذه العبارة الغامضة، إذ كيف يقوم طالب بالعمل وهو غير محتاج؟!

هنا ابتدأ زميلي المدرس بشرح القصة التي كلما أورد فصلا منها طلبت منه المزيد، إذ أوضح بأن العديد من الطلاب في هذه المدرسة، وهم عيّنات من هذا المجتمع، قد قدموا من أسر متوسطة الحال، يمكن لعوائلهم أن توفر لهم كافة مصاريف الدراسة، وذلك الطالب الذي أخذ عشرة ريالات من المدير هو فقير بالفعل، لكن فقره لم يصل إلى درجة عدم استطاعته شراء حذاء جلدي، لكن جرى ما جرى، ولم أجلس مع هذا الطالب كي أفهم منه هذا الموقف، لكني أظن أنه أراد إحراج المدير فلم يتمكن..وهناك طلاب من عوائل ذات دخل مادي رفيع، يمكن أن يوفروا لأبنائهم بدل الحذاء خمسة وستة، لكن ثمة عرفا لدينا ـ أو لدى بعضنا ـ يؤكد على أن الشاب اذا بلغ سن الـ 15 ينبغي عليه ألّا يأخذ من والده مالا، لذلك تجد هذا الطالب ـ وهو ميسور الحال ـ يذهب إلى العمل في الإجازة الإسبوعية، وبذلك هو يلبس ما يريد، ويأكل ما يريد، ويوفر لنفسه مصاريف دراسته، ومصاريف تمشيته و"كشتته" وما شابه ذلك، وبذلك فليس الذي يعمل هو بالضرورة فقير، وإن كان الأغلب كذلك.

هناك طلبت منه التوقف لأسأله:

ـ وهل العوائل موافقة على ذلك؟

ـ بعضهم نعم، وبعضهم لا يريدون لأولادهم الشقاء والتعب وهم في مقتبل أعمارهم.

ـ إذا كان رب العائلة غنيا، فلماذا يسمح لولده بالشقاء والتعب وهو في صغير السن؟

ـ الآباء لا يفرضون على أبنائهم العمل وهم صغار، لكنهم لا يرفضون ذلك، لاعتقادهم بأن العمل ينفعهم، وشعار آبائنا يقول :"العمل حياة الأبدان"، لذلك تجد الكثير من الطلاب وأنت تراهم يا

استاذ، وهم يلبسون أفخر الثياب، ويتعاملون بأفخم الأقلام والدفاتر، لكنهم يعملون في الإجازات، وبعض هذا الترف جاء من العمل، رغم أنهم لو طلبوا من آبائهم "لبن العصفور" لأعطوهم إيّاه.

ـ كلامك غريب يا أستاذ، يعملون وهم أولاد أسر غنية، أين يعمل هؤلاء؟

ـ الطلاب يا استاذ يعملون خلال الإجازات السنوية أو الاسبوعية، في الصيف أو الشتاء، بأعمال شاقة كالبناء والحفر والزراعة، والبعض يتم إلحاقه في مواقع عمل مع آبائهم في الشركات، والعمل يوفر لهم مصاريف السنة، هذا هو السائد لدينا.

هنا سألته سؤالا مباشرا:

ـ وهل كل أهالي حارتنا (الحوامي) كذلك؟

ـ هم لا يختلفون عن أهالي جزيرة تاروت، فالعديد من الآباء يأخذون أبناءهم ويقومون بتسجيلهم لدى بعض الشركات مثل شركة تغليف وتصدير الروبيان التي أطلقوا عليها اسم "الطبطاب"، حيث يقوم هؤلاء الطلاب/العمال بتقشير الروبيان وتغليفه، لتقوم تلك الشركة بتصديره الى أوروبا وأمريكا، وتجنى منه أرباحا طائلة، ولهذه الشركة ـ التي تعود لواحد من عائلة القصيبي المعروفة بنشاطها التجاري ـ مندوب في تاروت هو "عبدالأمير آل حسين" الذي يأخذ أوراق الطلاب ويوفر لهم النقل للذهاب الى الميناء للعمل في هذا المجال، ويأخذ الطالب/ العامل راتبا شهريا محدودا لا يتعدى الألف ريال، فيحصل على ثلاثة آلاف ريال خلال الإجازة الصيفية تكفيه طوال السنة.

ـ ما شاء الله، وهل هذا هو المجال فقط الذي يعمل فيه الطلاب؟

ـ لا. بل أن قطاع البناء أحد أبرز القطاعات التي يستقطب هؤلاء الطلاب، ففي "الحوامي" بنّاء معروف يطلق عليه "استاذ" هو "عبدالله بن عيسى عاشور" فهو شخص نشيط لا يهدأ من العمل، لا يرى شخصا في الحارة الا وطلبه للعمل لديه في مجال البناء، لذلك فهو صديق جميع الطلاب، كونه يوفر لهم فرص العيش

الكريم، وكل طالب يجد له فرصة عمل يومي الخميس والجمعة مع هذا الأستاذ، ويأخذ له مبلغا ماديا ينفعه ويساعده على متطلبات الحياة، ولذلك فإن بعض الأعمال تتطلب عمالة كثيرة، فإن هذا الأستاذ يؤجلها الى يومي الخميس والجمعة، اعتمادا على أن الطلاب سوف يتواجدون وهم على استعداد للعمل، فالطالب يقضي إجازته في شيء مفيد له، وينمّي لديه ثقافة حب العمل.

ـ وهل الأستاذ عاشور هذا وحده الذي يقوم بهذه المهمة؟

ـ لا، ولكنه هو الأبرز في حارة الحوامي، وأغلب العاملين معه من الطلاب هم من أهل الحوامي، فهو يتعامل معهم مثل إخوته، وأبنائه، لدرجة أنه في بعض الأحيان يرفع صوته عليهم، وتصل إلى حد الضرب.

ـ الضرب.. الضرب!!!

ـ إذا قصّر العامل في عمله، يضربه الأستاذ، فالعمل مثل المدرسة، يتربى خلاله العامل على مجموعة أخلاقيات أبرزها الالتزام بالدوام، والعمل بإخلاص، وأكل اللقمة بالحلال، هذه القيم إن لم نأخذها من المنزل أخذناها من المدرسة، أو من الحياة بشكل عام.

ـ وهل العمل في البناء هو المجال المتاح لهؤلاء الطلبة/العمال؟

ـ لا، فهناك العمل في مجال الكهرباء، وهناك أساتذة في هذا الشأن، ومجال الحفر من أجل السباكة وتمديد المياه للبيوت، وكان هناك بعض المكلفين بهذه المهمة، أبرزهم الحاج عبدالله بن سلمان الفضل، فهو الذي مدّد لأهالي تاروت شبكات الماء، بعد أن كان الناس يجلبون المياه من العيون بطريقة غير مريحة، والبعض كذلك يعمل في سوق الخضار والفاكهة، او يلتحق بأحد البقالات أو المحال التجارية، وقد تطوّر الأمر فالطلاب أبناء موظفي شركة أرامكو يأخذون أولادهم معهم خلال فصل الصيف، ضمن العمل الصيفي..وكثير من الناس ايضا يذهبون للعمل في الميناء، والمجال

هو "التحميل والتنزيل" للبضائع التي ترد الميناء، أو تخرج منه، وجميع الأعمال هناك شاقة لا تتلاءم مع طلاب المدارس، ولكن هذا هو الجو العام في بلادنا.

على ضوء ذلك، فما كان مني بعد أن فهمت الوضع كاملا، الا تقديم الشكر للأستاذ الزميل على هذا الشرح المفصل، الذي قدح زناده موقف ذلك الطالب، الذي أراد إحراج المدير فلم يتمكن، وكان المدير إيجابيا في هذا الشأن، وأراد أن يطبق هذا النظام، الذي ليس له أصل في أنظمة الدراسة، لكنه أراد وضعا إيجابيا للطلاب، وهو على طول الخط مثالي يبحث عن المثالية في كل شيء.

وعرفت من هذا الموقف ـ وغيره من المواقف ـ إنني أعيش في بيئة مقاربة لما أنا عليه في مصر، أو لما عليه الشعب المصري، وإن اختلفت بعض صوره، وللمقاربة بين الوضعين وجدتني في بيئة زراعية بحرية قريبة الشبه مع البيئة التي جئت منها، لذا كان سهلا عليّ التداخل مع الناس، خصوصا أهالي حارة الحوامي، التي هي نموذج من نماذج حارات جزيرة تاروت، هذه الحارة التي لا أحد يعرف لماذا سميت بهذا الاسم، تماما مثلما يجهل الكثير منا ـ نحن المصريين ـ معاني اسماء الدهقلية والدقي والحلمية ودمياط وأسيوط ..

وبت على قناعة تامة بأن وضعا مغايرا للصورة التي جئت محملا بها، فقد قيل لي بأني سوف أفد على شعب يتلاعب بالأموال، والقليل منهم يحب العمل، وإن الواحد منهم نائم على حقل نفط، إذا بي أجد سائق الأجرة، والبنّاء، والفلاح، والصياد، بل وحتى حامل القمامة وناقلها، كلهم من أهالي هذا البلد، وهنا تولّدت لدي صورتان: الأولى أن ثمة وضعا خاطئا أراه موجودا، أدى لوجود أسر فقيرة وأفراد معوزين، والثانية أن في هذا المجتمع أناسا يحملون روح العمل وحب العمل، وثقافة الكفاح، فالشاب الطالب يدرس في الصباح ويعمل في فترات ما بعد الظهر، ويقضي إجازته الإسبوعية في عمل، والكبار شعب عامل، يحمل روحا تؤهله لمقامات ومواقع أفضل، فتوصلت إلى أن هذا الشعب يستحق كل خير.

وما يؤكد هذا المعنى، وذات يوم، ومن باب الصدفة التي جمعتني مع شخص سبعيني يقول بأنه عمل في شركة الزيت وتقاعد منها، ويدعى "أبومهدي"، ولم أشأ أن أسأله عن إسمه الأول، ولكني وبينما أنا أسير ذات يوم جمعة متوجها نحو البقالة الوحيدة التي في الحارة وتعود لشخص يدعى "ابو كريم"، تلك البقالة تقع أمام مجرى ماء يشبه "الترع" التي لدينا في مصر، وكان هذا الشخص (أبومهدي) يسير ببطء مع حماره التي يجر عربة، ويريد أن يملأ تلك العربة بأكياس القمح والأرز الفارغة، فهو يشتريها ثم يبيعها، فأردت أن أساعده فرفض تحت مبرر "أنت ضيفنا ويجب علينا إكرامك"، لكني مع ذلك قرّرت مساعدته وقلت له:"انا لست ضيفا أنا صرت منكم وفيكم"، وكان هدفي من ذلك هو الحديث مع هذا الرجل المسن حول بعض المسائل التي تساعدني على فهم الناس وطبيعتهم وأفكارهم، فوافق تحت إصراري وإلحاحي على أن أساعده، فعرض عليّ ان أذهب معه في رحلة قصيرة على العربة التي يطلق عليها إسم "القاري"، فوجدتها فرصة لا تعوّض لأن أنتقل بين أحياء هذه البلاد الجميلة، وهي على كل حال رحلة لا تكلفني شيئا، وليس لدي شيء، وكان ذلك اليوم يوم إجازة فسألته:

ـ إلى أين ابومهدي؟

ـ عرفتني وما عرفتك، ولكن مع ذلك تشرّفنا، سوف أذهب الى ثلاث مناطق هي الربيعية والسنابس ودارين

ـ كل هذا وهي رحلة قصيرة؟

ـ الرحلة قصيرة لن تستغرق اكثر من نصف نهار!

وتحت إلحاح منه، استجبت، وعرف بطريقته الخاصة إني جائع فأعطاني عددا من حبّات التمر، فكانت سوداء داكنة السواد، لكن طعمها جميل ورائع، ونسبة السكر فيها عالية، فقلت له:

ـ هذا التمر جميل

ـ هذا تمر نسميه "الخنيزي" هو أفضل تمر عندنا في تاروت، وهل عندكم في مصر تمر مثل هذا؟

ـ نعم وربما أجمل

ـ على كل حال هذا التمر يأتي في منتصف موسم الرطب في الصيف، بعد البكيرات والماجية والغرّاية والخلاصة، وهو التمر الوحيد الذي ننتج منه الدبس، وهو الذي ننتج منه السلوق والخمال وحتى الحشف، عدا التمر الذي أكلته قبل قليل

هنا توقفت قليلا لأبادره:

ـ أبومهدي، أنا مصري، ما أعرف هذه الأسماء التي تتحدث عنها، ولم أفهم شيئا مما قلت.

ـ أفضل لك حتى لا توجع مخّك، هي أسماء بعض التمور، بعضها تؤخذ من النخلة الى البطن (نسميه الرطب او التمر)، وبعضها يتم سلقه بالماء الساخن (الخمال)، وبعضه يتم عرضه على الشمس حتى ينشف ويجف (نطلق عليه السلوق)، وبعضه يترك حتى يخرب ويقدم الى البهائم (الحشف).

وبعد حوالي ربع الساعة على انطلاقتنا وبدء الرحلة القصيرة، إذا بالحمارـ وعلى سجيته وضمن حركة بسيطة من أبومهدي ـ يدخل بنا غابة كثيفة الأشجار، اشد كثافة وغموضا ووفرة من المزارع التي تقع على الطريق المؤدي إلى المدرسة، بحيث لا ترى الشمس في هذه المزرعة، وتمر على حقول البرسيم وأشجار النخيل والموز واللوز وبعض الفواكه التي أعرف بعض اسمائها مثل الرمان والتين، وبعضها لا أعرفه، منها ما يشبه الزيتون الأسود، والمفاجأة هنا إني في هذه الجولة شاهدت أشجار جوز الهند العملاقة، التي ـ كما أعلم ـ أن الهنود أنفسهم لا يستطيعون الركوب إليها، وإنما يعتمدون على القرود لقطف ثمارها، ولفت نظري أنها على وشك الموت، أو هي في الطريق لأن تسقط وتنقرض.. وفي الطريق شاهدت الفطر الأبيض، لا أحد يقطفه، ولا أحد يلمسه، وطول الطريق كنا نمر على الفلاحين يرحبون بنا، ويدعون "ابومهدي" الى تناول شيء مما لديهم من الطعام والقهوة والماء..

واللافت في هذا الأمر أيضا ــ وهنا الغرابة ـ أن في بعض تلك المزارع كانت هناك بعض النسوة يشتغلن مع أولادهن وأزواجهن في أعمال الزراعة، وهناك أنواع من الماشية تسرح وتمرح في المزارع، تأكل ما تيسر لها وتسنى من نعم الله الوافرات، وبين مسافة وأخرى هناك عين ماء فوّارة من الواضح أنها ساخنة بدليل البخار الذي يفوح من كل منها، وقد وقفنا امام واحدة منها اطلقوا عليها عين "البدرية" وذلك لأن "ابومهدي" عرف أن حماره يريد أن يشرب قليلا من الماء، فوقف وأخذ الحمار يلغ في الماء بلسانه ويشرب بكل هدوء وسكينة، ثم أعلن عن اكتفائه، وعرف "ابومهدي" أن حماره جائع، فطلب منّي النزول، وكنت أريد ذلك كي أمتع ناظري بما أراه من أشجار، فقام بالذهاب الى مسافة لا تزيد على المترين ثم جاء ومعه بعض الأوراق الخضراء وضعها أمام الحمار الذي أقبل على أكلها بشراهة ونهم، وقال لي بعدها ان هذا الغذاء هو المفضل لدى الحمار نسميه في تاروت بــ "القصّيب" فأكل الحمار حتى شبع ثم عاد وشرب قليلا من الماء، ثم مضينا في طريق زراعي غير مستو ولا ممهد، لكن الحمار لم يتوقف وكأنه يعرف طريقه، بدون توجيه من قبل "أبومهدي".

وبينما نحن في رحلتنا هذه، إذا بالحمار قد توقف فجأة، وصار ينهق بصوت لا أحد يستطيع مقاومته، وتأكد لي بالفعل أن أنكر الأصوات لصوت الحمير، ولم أعرف السبب، لكن "ابومهدي" فهم القصة، وقام بتهدئة حماره، وقام بتغيير الطريق، والسبب أن الحمار شعر بأن حمارة أنثى سوف تأتي الآن، فقرّر بغريزته الا يتحرك حتى تصل، فينال مراده منها، هكذا قال لي "ابومهدي"، الذي كان يتكلم عن الموقف بكل جدية، وكأنه "قدّر" لهذا الحمار شعوره العاطفي وغريزته الجنسية، التي بدت معالم تحرّكها لديه وهيجانها، فمضى الحمار على حال سبيله، ثم توقف مرة أخرى ولكنه هذه المرة كان هادئا جدا وقام بقضاء حاجته وإفراغ ما في بطنه من

سوائل وأطعمة، وكلانا كان ينظر الى الموقف بكل صمت، و"ابومهدي" بات يتعامل مع الموقف بكل موضوعية، وبكل عطف، وبعد لحظات شاهدته قد انقلب رأسا على عقب وقام بصوت حاد وقوي يكرر عبارة :"حر.. حر.. حر"وضرب الحمار على ظهره ضربة خفيفة بعصا كانت بيده، فسار الحمار بسرعة ودخل طريقا زراعيا آخر، بدت على هذا الطريق الوحشة، وهناك داخلتني بعض الشكوك والهواجس من أن الأمر لا يخلو من مقلب، ربما كنت ضحية لا أعرف التخلص منه، فلذت بالصمت ليبادرني "أبومهدي":

ـ خفت يا أستاذ

ـ لا ولكن الأمر غريب!!

ـ ما غريب الا الشيطان، تلك سلوكيات الحمير عندنا، تتغير طبائع الواحد منها حينما يشم رائحة الأنثى، وأعذره حيوان محروم، ويريد أن يقضي حاجته.

هنا ابتسمت، ثم ضحكت من الموقف، ولم يكن "أبومهدي" بأقل سعادة مني، إذ لم يجد حديثا في هذه اللحظة الحرجة غير سيرة الحمير، لقد بدأ يتحدث عن الحمير بمنتهى السعادة والسرور، وكأنه لا يعرف غيره، فقال لي:

ـ الحمار له هذا له إسم

ـ وهل الحمير لديكم لها أسماء؟

ـ نعم لها أسماء، وهناك عوائل متخصصة في العمل بالحمير.

ـ أسماء .. أسماء؟!

ـ نعم أسماء مثل البشر، فهناك حمار حتحوت، وحمار شنكوح، وهناك حمار يطلق عليه "حمار الصاروخ"، لسرعته وقوة انطلاقته، وهناك حمار الملالي الوحش.. ولدينا عوائل لا شغل لها سوى "الحمارة" أي النقل بالحمار، تنقل التمر والسمك وباقي الأغراض بهذه الوسيلة، فالحمار هنا له قيمة، وعمله كبير.

هنا لم أكن أريد أن يعلّمني هذا القروي أو يتفوق علي، فغلبتني "مصريتي" فقلت له بلغة لا يفهمهما:

ـ عندنا في مصر الحمار له قيمة أيضا، وله احترام كبير، حتى اسسوا جمعية اسمها جمعية الحمير

ــ ما فهمت يا استاذ

ـ لدينا عدد من الكبار والعظماء يرون أن الحمار هذا أعظم مخلوق على الأرض، لذلك هم يدافعون عن الحمار، حتى سمّوا أنفسهم "حميرا".

هنا شعر "أبو مهدي" بمزيد من الارتياح وقال :"إن الحمار نطعمه ونسقيه، ونقوم بتنظيفه في حمّام خاص اسمه "حمّام الحمير" وهو جزء من حمّام تاروت العريق، ولكننا لا نملك أن نزوّج الحمار، فهو في هذا الجانب "طماع"!!

هنا ضحكنا ضحكة كبيرة، إذا بنا نخرج من الطريق الزراعي لنرى الشمس بازغة، أعشتنا بضيائها، والتفت إذا بنا ندخل منطقة سكنية غير مكتملة وغير منظمة، لقد خرجنا من المنطقة الزراعية لنقبل على منطقة سكنية، بها منازل قديمة، وبيوت خشبية، وأخرى مبنية من سعف النخل، وحينما سألت رفيقي عنها قال :" في بلدة الربيعية"..

وفجأة وبدون مقدمات بدأ "ابومهدي" يرفع صوته قائلا :"من عنده أخياش.. من عنده صفر قديم"، قلت في نفسي ماذا يحدث، فقرّرت الصمت والانتظار لأرى ما الذي يحدث، وعلى من ينادي هذا الرجل العجوز، بعدها بلحظات جاءت أمرأة وقد غطت وجهها بالكامل، ولا يتضح من معالمها شيء سوى كفّيها، وهي تؤشر علينا بالوقوف، وبطريقة سلسة، وبإشارة بالعصا توقف الحمار، ونزل أبومهدي وأخذ من المرأة عددا من الأكياس الخاصة بالقمح والأرز، وبعض الأواني القديمة، وأعطاها مبلغا من المال، ورمى بما أخذه في العربة، وقفز وكأنه شاب عشريني إلى العربة وغمز حماره غمزة بالعصا في ظهره فتحرك وانطلق بسرعة، ثم توقف عند رجل أشار علينا بالوقوف، وطلب منّا الجلوس أمام منزله، فجلب لنا

شيئا من الماء البارد والقهوة والشاي وبعض التمر، وكان قريب الشبه بالتمر الذي أكلته بداية الرحلة، وجلب بضاعته وسلمها الى "ابومهدي" وبعد لحظات قمنا عنه شاكرين له حسن الضيافة.

وأثناء المسير سألت "ابومهدي"

ـ هل هذه هي مهنتك؟

ـ نعم مهنتي في الوقت الحاضر، ومنها أكد على العيال، واقضي وقت فراغي بعد أن تقاعدت من ارامكو

ـ وهل عملت في ارامكو؟

ـ نعم في بدايات تأسيسها حينما تركنا العمل في الغوص، حيث صيد اللؤلؤ وبيعه، التحقنا بالشركة حتى كبرنا، وكبرت أولادنا فتقاعدنا وكنا ثلاثة، أحدنا صار يبيع الفواكه والخضار، وآخر قرر أن يبقى في المنزل، وأنا أسرح مع هذا الحمار اشتري الأخياش وأبيعها على بعض التجار، وأكسب منها قوت يومي.

ـ وأين تبيع الأخياش؟

ـ أبيعها بالقطيف

ـ وهل تذهب الى القطيف بالحمار؟

ـ لا، ولكن أذهب مع صديقي سائق الأجرة محمد علي الصفار، ويذهب بي إلى القطيف، وإذا لم أجده، أقف على الطريق ولا أتعطل، وبدلا من الواحد هناك ثلاثة من أصحاب سيارات الأجرة (التاكسي)، وأرجع بعد ذلك من المحطة، وهذا ما يحصل كل يوم خميس.

ثم انتقل "ابومهدي" من المنطقة السكنية، ليدخل في زقاقات غريبة عجيبة، وهناك منطقة شبه صحراوية تطل على البحر، وكان ذلك أول يوم أرى البحر فيه منذ أن قدمت إلى السعودية، فدخل الحمار منطقة اشبه بالمستنقع، ولم يكن ذلك الحمار خائفا من أي شيء، لأنه ـ كما يبدو ـ يعرف الطريق، وبعد مرورنا بعدد من الحفر والنتوءات وقفنا عند عدد من المنازل الصغيرة المتفرقة والمتباعدة، فعاد "ابومهدي" يصدح بصوته مناديا :"من عنده أخياش" مرة بعد أخرى، إلى أن رآه شخص كبير في السن، قام بتقديم التحية، بل بالغ

في الترحيب والتقدير، وطلب منّا أن نحل ضيوفا عليه، لكننا اعتذرنا، فأعاد الكرة بتقديم إغراء لم أفهمه من البداية حينما قال :

ــ نعطيك ما تحبّه نفسك، ونقدم لك ما يسر قلبك.

فرد "أبومهدي" وكأنه فهم المقصد:

ـ الله يخلّيك كلك كرم وجود.

ــ ترى عندنا هامور وصافي وكنعد وروبيان، والباقي عليك، اطلب وتخيّر.

وأنا كنت أسمع الحوار، وأنا مذهول مندهش، وحينما سألت "أبومهدي" عن تلك المفردات، قال لي :"إن هذا الرجل من أهل سنابس، وكعادتهم إذا جاء الضيف يتم إكرامه بأن يقدّموا له وجبة سمك دسمة من أفضل الأسماك لدينا، وهم لا يبخلون في إكرام الضيف، ولو نزلنا لرأينا هذا الأمر، ولو طال النقاش معه لما تركنا، خاصة وقد عرفك بأنك غريب على الديار، فهم يكرمون الغريب، ويقدّرون القريب"، والأسماء التي ذكرها هي أسماء بعض الأسماك لدينا هنا، فعرفت من هذا الحوار أننا في منطقة أخرى غير التي كنا فيها، وهي منطقة سنابس التي تقع بجوار البحر مباشرة، وهناك على الساحل الذي يسمونه أهالي تاروت بــ "السيف"، بكسر السين، وهناك وجدنا رجلا أسمر اللون، آثار المعاناة بادية على وجهه، رغم معالم البشر والطيبة والترحيب قد ظهرت منه فقال لنا:

ـ أبومهدي كأنك أتأخرت اليوم

فردّ عليه:

ـ اليوم معي ضيف من إخواننا المصريين، وهو استاذ الأولاد في المدرسة، طلبت منه أن يرافقني، وتكرّم علينا بذلك.. هذا غير أن حمارنا العزيز عطلنا في "البدرية"، بعد ما سمع صوت حمارة النوخذة، وكان يريدها، ولكننا اقنعناه بعد جهد طويل!.

هنا ابتسم ذلك الرجل الأسمر، وقام برفع كمية كبيرة من الأسماك وضعها في سلة مصنوعة من أوراق (خوص) النخيل،

كبيرة جدا، يطلقون عليها إسم "مرحلة"، وضعت في العربة (القاري)، وطلب منه أن يوصلها الى سوق السمك في تاروت، إذ سوف يستقبلها الحاج عبدالله وهو بائع أسماك هناك.. وطلب منّا النزول لتناول طعام الغذاء مقدّما إغراءات لوجبة سمك لا تقاوم، وكنت أشعر بالجوع، وكم كنت أتمنّى لو أن "ابومهدي" يستجيب لذلك كي نرتاح قليلا، ثم نأكل هذا السمك الخليجي التاروتي السنابسي، لكنه أصرّ على الرفض تحت مبرر أنه مرتبط، ولديه مشوار الى دارين، حينها قام ذلك الرجل الأسمر الذي ناداه أبومهدي بـكنيته "أبو حبيب"، بجلب كمية غير قليلة من الأسماك ووضعها في سلّة شبيهة بتلك السلة، ولكنها أصغر حجما، وقال لنا :"ما دام ما أكلتم غذاءنا، وزدانا فهذا غذاؤكم اليوم".. حينها لم يكن منّا سوى تقديم الشكر الجزيل له، حتى أن "ابومهدي" قال له:"جزاك الله خيرا"، لكنه أردف ذلك بعبارة فيها شيء من المزاح حينما قال:"ما عندك غذاء للحمار"، فرد بسرعة فائقة:"عندنا غذاء لبني آدم وليس للحمير"، فغادرنا الموقع والسعادة تغمرنا، وقد حصلنا على وجبة سمك جميلة.. حينها بادرني "أبومهدي" :

ـ استاذ لم يبق لنا سوى مكان واحد نقصده ثم نرجع الحوامي.

فرددت عليه وأنا اشعر بالتعب:

ـ انت الرئيس والاستاذ في هذه الرحلة.

ـ عليك بالصبر والتعب على الحمار

ـ الله يعين هذا الحمار

ـ ويعيننا واياه

انطلق بالحمار وغادر الشاطيء ثم توجه بصورة أسرع من ذي قبل، ومر بنا أيضا على عدد من المزارع، في طريق غير معبّد ولاشيء من الزفلتة فيه، وبعد حوالي النصف ساعة من المشي مع الحمار وصلنا الى منطقة سكنية قريبة من الشاطيء أيضا فهمت أنها دارين، وقد دخل وقت الصلاة، فقلت:"نواصل الرحلة، ام نؤدي الصلاة؟"، فوافق معي على أداء الصلاة ولكن في أحد مساجد دارين، فوقفنا أمام المسجد، حيث ربط "أبومهدي" حماره، وتركه

مع كل بضاعته وأسماكه، وقذف شيئا من العلف ممن تبقى من وجبة الصباح أمامه، وجلب له قليلا من الماء من المسجد، وذهبت أنا إلى مكان الوضوء وتوضأت، وقد توضأ "أبومهدي" بصورة تختلف قليلا عن الوضوء الذي قمت به، فقد بدأ بغسل يده، ثم تمضمض واستنشق وغسل وجهه ويديه ومسح رأيه بيد واحدة، ثم مسح رجليه كل رجل بيد، ولم يغسلهما كما نفعل نحن، كما أن كل عمل من أعمال الوضوء كان يقوم به لمرة واحدة، أو مرتين، وليست ثلاثا، وكنت أسمعه يكرر اذكارا مع كل عمل، ويستغفر الله كثيرا، ولما التحقنا بصلاة الجماعة، رأيت ان صلاته ـ أيضا ـ تختلف قليلا عن صلاتي، فلم يضع يدا على الأخرى، وإن كانت الصلاة نفسها، القيام هو القيام، والركوع هو الركوع، والسجود هو السجود، غير أن "أبومهدي" وضع قطعة من حجر وسجد عليها، بعد ذلك عرفت أن كافة أهالي حارة الحوامي ـ ومنهم أبومهدي ـ هم من المسلمين الشيعة، بينما أهل دارين هم من المسلمين أهل السنة والجماعة، لكن الذي استوقفني كثيرا هو إننا وبعد الصلاة رأيت ترحيبا كبيرا متبادلا بين "ابومهدي" وعدد من المصلّين، فهو "شيعي" وهم "سنة" ولكن الود قائم، والعلاقة بين الطرفين أكثر من حميمية، وحينما خرجنا من المسجد وتوجهنا صوب الحمار بغرض الرحيل، والبحث لبعض الوقت عن شخص يبيع بعض الأخياش والأواني النحاسية، إذ بصوت قوي قائلا:"أبومهدي.. أبومهدي.. أبومهدي" فرد عليه بصوت أقوى، ولما اقتربا من بعض تبادلا السلام الحار، فقد بدا هذا الشخص من شكله أنه من ذوي الوجاهة الاجتماعية، فهو يلبس كوفية معتمرة بالعقال، وذلك الزي الرسمي الذي يلبسه المسؤولون الكبار في المملكة، وبعد ان سلّم وتصافح مع "ابومهدي" إذا به يدعونا على الغذاء، بل وبإصرار غريب لا يقبل العذر، ولا التأجيل، وفوق ذلك طلب من أحد الأشخاص أن يعتني بالحمار ويأخذه الى الزريبة، وتم ذلك بالفعل، حينها صرنا مكبّلين، ولم يكن أمامنا أي

مجال للرفض، فملنا معه وذهبنا الى مقر إقامته، وبعد أن أتاح لنا المجال أن نغسل أيدينا ووجهينا من آثار هذه الرحلة الشاقة، جلسنا في مجلس كبير، وكل الحضور يجلسون على الأرض، فقدّم لنا شاب صغير بدت عليه معالم الخير والنعمة قليلا من الماء، ثم جاء بطبق من التمر، يختلف عن التمر الذي أكلته من عند "ابومهدي"، ثم صبّ لنا قليلا من القهوة العربية، واللافت أن "ابومهدي" شرب فنجانا من القهوة وتوقف ذلك الشاب، أما أنا فقد شربت فنجانين وقد همّ بصب الثالث لي، فقلت له :"أحسنت يكفي"، فطلب منّي "أبومهدي" بأن أهزّ الفنجان كي يشعر الشاب بالتوقف، فهذه الهزّة هي علامة أو اشارة على الكفاية.

وبعدها جاء هذا الرجل الذي يناديه الحضور بـ "ابودحيم" الذي اعاد الترحيب بنا، والتفت لي وقال:"كأنك استاذ بمدارسنا"، فقلت له:"نعم في مدرسة الاستاذ ابراهيم الهارون"، فابتسم ورحّب بنا مرة أخرى، وما هي الا لحظات الا بمجموعة شباب يحملون صحونا كبيرة ملئت بالأرز وضعوا عليها أنواعا وأشكالا من الأسماك، فطلب منا التفضل بالأكل، فبدأنا نأكل ونأكل، وآثار التعب عملت شيئا كثيرا في أجسادنا.. وبعد تناول الغذاء وأخذ قسط من الراحة قام "ابودحيم" بإعطاء "أبومهدي" مبلغا من المال هي مقابل إيصاله كمية من الخشب والحبال وأشياء أخرى من وإلى دارين عن طريق الحمار والعربة.

وهكذا بدت لي دارين والتي هي جزيرة صغيرة تعانق البحر، وبدا لي ـ وعرفت فيما بعد ـ أن أهلها يعملون في الصيد، أو في التجارة ذات العلاقة بالبحر، وفي الطريق إلى تاروت وإلى الحوامي بالتحديد، وجدتني أمام المدرسة التي أعمل بها، ومن أجل الوصول الى تاروت قصد "أبومهدي" طريقا زراعيا آخر، لا يقل روعة وجمالا عن الطريق الذي تعوّدت أن أسير عليه في الصباح الباكر قاصدا المدرسة، وفي هذا الطريق رأيت حياة أخرى، ووضعا مغايرا، ومررت بمناطق زراعية ذات طبيعة خلاّبة، وبأسماء قالها لي "ابومهدي" مثل "سودة، وقضبة، والحسينية، والقساطين" ومن

مزرعة إلى أخرى، ومن بستان إلى أخر، حتى بلغنا سوق السمك ليقوم "ابومهدي" بتسليم شحنة الاسماك إلى الحاج عبدالله الذي سيقوم بدوره ببيعها، ومن جانبنا عدنا الحوامي، حيث قصدت الشقة، ومعي كمية غير قليلة من الأسماك، لأنام نوما عميقا بعد عناء طويل من هذه الرحلة الشاقة الممتعة..ولم يفتني في اليوم الثاني أن اقيم وجبة غذاء سمكية دعيت إليها عددا من زملائي المصريين، الذين جعلتهم يجرّبون الأسماك الخليجية، التي لا تقل لذّة عن أسماكنا من النيل عدا أن أسماكنا "نهرية" وهي هنا "بحرية" شبيهة بالأسماك التي في الاسكندرية والإسماعيلية.

إنني وبعد هذه الرحلة شعرت بالكثير من الارتياح وإن كنت قد تعبت جسديا، بحكم التنقل بالحمار والعربة تتعب البدن وترهق العضلات، كوني وجدت تمازجا نفسيا بين ما أشعر به وما أراه في هذا المجتمع، الذي التقى فيه كونه مجتمعا زراعيا يمارس مهن الزراعة بمختلف تفاصيلها، والصيد بمختلف اشكاله وأنواعه ومصادره.. وقفت على حقيقة البساطة التي يتسم بها هذا المجتمع، في تعاملاته وعلاقاته..

ايّام في الحوامي

الحوامي منطقة متعددة الزقاقات، ذات كثافة سكانية غريبة، الكل منفتح على بعضه، وفي الوقت نفسه لا أحد يدري بما يجري داخل المنزل الآخر، ليس لأن هناك أسرارا مخفية بين الجميع، بقدر ما أن ثمة أمانة سائدة بينهم، تقضي بوجود حدود لا يمكن تخطّيها أو تجاوزها، فكل بيت له حرمته، وكل بيت له أسراره، وكل شخص يعيش بطريقته الخاصة داخل بيته.

أهل الحوامي أيضا يتفاعلون مع أي شخص غريب عليهم، فلا يمارسون قهرا بحقه، ولا يحملون نكاية عليه، بل يمكن لأي شخص غريب عنهم في كل شيء أن يتداخل فيما بينهم، فيحصل على نمط من التعامل يدل على حسن النية، والطيبة السائدة بين اهل هذه الحارة.

هذه الصورة توصلت لها جراء السنوات الخمس التي قضيتها بينهم، رغم إني لا أحمل الجنسية المحلية، ولهجتي غريبة عليهم ـ رغم انها عربية معروفة بفعل الدراما المصرية ـ كما أن لهجتهم المحلية غريبة عليّ، لا أفهم الكثير من مفرداتها، وأكاد أجزم لو أثنين منهم تحدثا بلهجتهما المحلية القديمة أمامي فسأكون "مثل الأطرش في الزفّة" كما يقال لدينا في مصر.. هذا فضلا عن كوني مختلفا معهم في المذهب الديني، فأنا من أهل السنة والجماعة، وهم شيعة اثناعشرية، وإن كانت هذه الجزئية غير واردة بالنسبة لنا ـ نحن المصريين ـ وهي غير موجودة لدى أهالي جزيرة تاروت قاطبة، بدليل ما رأيته بين "ابومهدي" وأهل دارين.

الحوامي حارة تقع جنوب شرق تاروت، تتألف من عدة زقاقات يسمّونها "فرقان" او "زرانيق" فهناك "فريق أبوإبرة"، "وفريق ابوحبال"، و"الفسيل" و"الفسيل العود" و"باشلاما" وكلها اسماء بساتين طالتها يد العمران فحوّلت بعضها الى مناطق سكنية، وأبقت البعض الآخر على حاله، لكن الأسماء لم تتغير ولم تتبدل،

لكنها بفعل الزمن أدمجت وصارت ضمن إسم واحد هو "الحوامي".

هذا الاسم سألت عنه، فلم أصل الى نتيجة، غير أن اللافت للنظر هي الحيوية التي تتسم بها هذه الحارة، فتجدها تتحرك بشريا في الصباح الباكر، ولكنها بمجرد أن تغيب الشمس ويرخى الليل سدوله حتى يختفي الناس تجاه منازلهم، فالكل يكره السهر خارج المنزل، بل أن من السمات المكروهة لدى الناس هي السهر، خاصة إذا كان هذا السهر في الخارج، وقلّما تجد شخصا يسهر خارج المنزل، فلا مجال لذلك لأن الجميع يستعد للقيام بمسؤولية عملية في الصباح الباكر، فالطالب يصحو مبكرا أي قبل السادسة صباحا لأن المدارس بعيدة نوعا ما عن الحارة، والعمال لابد أن يستيقظوا مبكرا لأن أحدا لا يملك وسيلة مواصلات خاصة، لذلك فهو مضطر لأن يقف على قارعة الطريق كي يستقل سيارة تقله الى موقع عمله. سائقو الأجرة أنفسهم يستيقظون باكرا لأن الزبائن تكثر في مثل هذا الوقت، وما موظفو الشركات الذي ينتقلون إلى العمل في الدمام أو الخبر أو الظهران أو رحيمة فلا بد لهم أيضا من الجلوس مبكرا، بل أن بعضهم يغيب عن منطقته وحارته وأهله وأولاده لمدة اسبوع، فيأتي يومي الإجازة فقط ليعود مرة أخرى.

يضاف إلى ذلك وإنه وخلال تلك الفترة التي جئتها لم تكن هناك حركة تلفازية قوية، فالتلفاز يغلق بثه في العاشرة ليلا، باستثناء ليلة الجمعة حيث يمدد الفترة حتى الثانية عشرة بعد منتصف الليل، بالتالي فلا شيء يحفّز على السهر، أو يدعو الواحد لكي يسهر، كما لا توجد مواقع تستقطب جموع طالبي السهر، فلا سينما ولا مسرح في السعودية فضلا عن تاروت، أو حارة الحوامي.. إضافة إلى أن من يشقى ويتعب في النهار لا يجد مجالا للسهر في الليل، فالليل جعل للراحة.

الحوامي تنبض بالحيوية، وربما كانت من الحارات التي لا تعرف الهدوء منذ أن تطلع الشمس حتى تغيب، تلك الحقيقة توصّلت لها خلال معايشتي لعدد من الرجال ممن هم في سني، أو ممن هم أصغر سنا منّي وهم طلّابي في المدرسة، الذي عرفت منهم العديد من الصفات التي تتصف بها هذه الحارة، وأهل هذه الحارة.

ذات يوم قررّت أن أقوم بزيارة أحد كبار السن في الحارة، بغية التعرّف على هذه الحارة، وأهلها، فطلبت من أحد الطلاب أن يوصلني إلى واحد من الكبار الذين لهم تجارب في الحياة، فأرشدني على مجلس الحاج أحمد البحراني الذين أطلقوا عليه أحمد الأسود بحكم أن بشرته سمراء داكنة، إلا أن قلبه نقيض سحنته، فهو يرحب بالضيف ويكرمه، رغم إن حالته المادية ضعيفة للغاية، لقد قمت بالزيارة برفقة ذلك الطالب، وإذا بي أقف أمام جماعة من أهل الحوامي، لا يوجد بينهم شخص الا وعمره تجاوز الستين، فأصغرهم يمشى على عكازة، بمعنى وجدتني أمام كتلة كبيرة من التجارب والخبرات، فقالوا في البداية أن خطيبا سوف يأتي ويلقي عليهم خطبة دينية، وبعد الخطبة يمكن الحديث معهم في كل شيء، وجاء الخطيب ويدعى الملا حسين الفضل، وهو ضعيف البصر يلبس نظارة عريضة جدا، يكاد لا يبصر ما حوله، لكنه يملك من الثقافة الدينية ما يفوق بها كافة الناظرين، وما أن وصل هذا الخطيب البصير إذا بالجمع قد قام مرحبا به، وبعدها لاذوا جميعا بالصمت، وصعد المنبر، وصار ينشد شعرا في الحسين بن علي (سبط النبي (ص)) قال في مطلعه:

وجه الصباح علي ليل مظلم
وربيع أيامي علي محرم
والليل يشهد لي بأني ساهر
إن طاب للناس الرقاد فهوّموا

ثم تحدث عن العبادة وخوف الله وضرورة أن يكون الإنسان صالحا في دنياه، كي يلقى ربه طاهر القلب نقي السريرة، فيدخل الجنة، وتحدث كثيرا عن نعيم الجنة، وعذاب النار، وعذاب

القبر..وأنا أسمع هذا الخطيب شعرت وكأني في حضرة المسجد النبوي، أو في حضرة أحد الطرق الصوفية المنتشرة لدينا في أفريقيا، فوجدته الخطيب البصير يستدل كثيرا بأحاديث مروية عن الرسول (ص)، بعدها تطرق إلى جريمة قتل الحسين من قبل الأمويين وأورد بعض مشاهد الجريمة التي تمت من قبل الجيش الأموي، وأتذكر أنه تحدث عن أن الجيش الأموي بعد مقتل الحسين قاموا برض جسده، وسلبه ملابسه، وتركه في العراء لثلاثة أيام، فضلا عن هجومهم على مخيمات بنات رسول الله، وهو يعرض تلك الصور المؤثرة وأنا أرى ذلك الجمع قد مرّت عليهم سحابة حزن غريبة، فالكل قد أنكس رأسه إلى الأرض، ووضعه بين ركبتيه، وصار يبكي وكأنه قد فقد ولدا أو أخا.. لقد شاهدت رجالا كبارا في السن وهم يبكون مثلما يبكي الأطفال وهم يسمعون ذلك الرجل الخطيب البصير، الذي يصغرهم سنا، فهناك فارق بين عمره وأعمارهم يصل الى أكثر من 20 عاما.

وبعد أن انتهى الخطيب من خطبته، التي توّجها بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، نزل على المنبر وتداعي الحضور بالسلام عليه، وشكره على ما قدّمه لهم.. ثم جاء شاب صغير السن ليقوم بتوزيع كؤوس الشاي الصغيرة وفناجين القهوة، التي تختلف عن الفناجين التي عندنا في مصر، كما أن القهوة هنا تختلف عن تلك القهوة التي نشربها في مصر، التي يضاف لها السكر في بعض الأحيان.. بعد ذلك قام الجميع بتدخين التبغ بصورة غريبة جدا، تشبه طريقة تعاطي الحشيش في مصر، إذ أن "الأرجيلة" والتي تسمى عندهم "النارجيلة" تدور على الحضور واحدا بعد واحد، وكل واحد يكرع كرعة أو كرعتين ثم يزفر الدخان إلى الخارج بصورة قوية لينبعث دخانا كثيفا من الفم والمنخرين، ثم يسلّم تلك الأرجيلة إلى غيره ليقوم بالفعل نفسه.

بعد كل هذا البرنامج وخروج الخطيب مشكورا من الجميع، يبقى من يريد البقاء، ويخرج من يريد الخروج، إلى أن غادر الكل ولم يبق سوى ثلاثة طاعنين في السن أحدهم يدعى "حسن الفارس"، والثاني "ابراهيم الدرازي"، والثالث "احمد البحراني"، وهو صاحب المجلس الذي بادرني بالسؤال عن إسمي ووطني ومهنتي، فأجبت عليه بأنني مصري وأدرّس في مدرسة تاروت المتوسطة على طريق دارين، وجئت هنا كي أتعرّف على الناس، فليس سليما أن أكون في بلاد ولا أعرف أهلها، فما كان منه الا أن رحّب بي وقال لي:"ياولدي البيت بيتك، والبلاد بلادك وكلّنا أهلك".

شعرت بالسرور ثم بادرته بالحديث عن حقيقة هذا المجلس، هل هو اسبوعي أم يومي أم شهري، فرّد علي بأن مجلسه مفتوح كل ليلة بعد صلاة المغرب والعشاء، وإن المجلس الحسيني والخطبة، وملا حسين الفضل تقام كل ليلة إثنين.

هنا دارت في رأسي مجموعة أسئلة تبعث على الحيرة، وإن إجاباتها تفتح لي المزيد من معرفة هذا المجتمع الذي أعيش فيه، فقلت:

ـ وهل هذه الخطبة في كل بيت

فرد علي:

ـ بعض البيوت تقيم هذا المجلس الذي نسميه "العادة" فعادتنا ليلة الاثنين، بينما هناك من عادتهم ليلة الثلاثاء، أو ليلة الجمعة، أو ليلة السبت، وعلى مدار الأسبوع هنا مجالس، ونحن بدورنا ننتقل من مكان إلى آخر، ونأخذ الموعظة ونكسب الثواب، والبعض منا يحصل على معرفة دينية.

ـ وهل هذا يختلف عن المناسبات السنوية المعروفة لديكم؟

ـ المناسبات السنوية تقام في المساجد والحسينيات، وهي تختلف عن "العادات" الإسبوعية التي تقام طوال السنة، والتي قد تتفق مع المواليد أو الوفيات، ونعني بذلك وفيات ومواليد النبي وأهل بيته الطاهرين، ثم إن هذه العادات تقام في الليل فقط، بينما المناسبات تقام

طوال اليوم، في الصباح والعصر والليل، تبدأ من الخامسة فجرا وحتى العاشرة ليلا، بل تزيد على ذلك في بعض الأحيان.

ـ وهل هذه العادة انتم ابتدعتموها، أم هي حالة متوارثة من الآباء والأجداد؟

هنا رد علي الحاج إبراهيم الدرازي:

ـ الله خلقنا محبين للنبي وأهل بيته، لذلك نحن نقوم بهذا الأمر منذ أن كنّا صغارا، رأينا آباءنا وأجدادنا يقومون بهذا العمل، ولو كان شيئا ضارا لما قمنا به، وانتهينا عنه، لكنه ذكر لله ولرسول الله وسيرته الحسنة، ونسأل الله حسن الخاتمة.

حينها عرفت في قرارة نفسي لماذا هذه الحارة جميلة، ولماذا معظم أهلها يتسمون بالطيبة، وعرفت ان ذلك جاء لأن حالة من ذكر الله وذكر الآخرة سائدة بين البشر، إذ يوجد من يقوم بالدعوة إلى الخير، فالخير بين الناس سائد.

هذا الشعور انتابني وأنا أنظر في وجوه الحضور وقد بادرتهم بالسؤال:

ـ وهل هذا المجلس قديم أم مستجد؟

رد البحراني:

ـ قديم منذ زمن طويل، وأنت كما ترى أن أغلب الحضور ممن تجاوز السبعين من العمر، ومنه من ناهز التسعين، ومن قبلهم أناس فارقوا الحياة الدنيا، وليس لهم وجود سوى بالإسم والأولاد.

ـ وهل أنتم مواظبون على هذا المجلس قبل ان تتقاعدوا؟

ـ نحن نعمل بالنهار، لكننا بالليل نلتقى إلى وقت النوم، خاصة وإننا جميعا لم نتعود على السهر.

لقد كان لقاء حميميا للغاية، لم أشعر بالغربة معهم، وهم أيضا لم يشعروني بأني غريب بينهم، حتى في المسائل التي كنت أجهلها، أو لا أفهمها في الكلام عن مجمل الوضع في هذا المجتمع كان يتم إفهامي إيّاها بكل سعة صدر وتقدير واحترام، ورغم أن الجميع ينام

باكرا، والجلسة تنتهي عند الساعة التاسعة ليلا، إلا إنني بقيت معهم حتى الساعة العاشرة، بل كررّت الزيارة لهم بمفردي وبمبادرة منّي وليست عن طريق أحد، وفي كل مرة أجدني أقف على معلومة لم أكن أعرفها عن هذا المجتمع. فقد وجدت أن هؤلاء ـ رغم تقدّم أعمارهم ـ يتجاوبون مع تطورات العصر بشكل تلقائي، ويتفاعلون مع كل معطياته.. فعلى الرغم أن بعضهم عمل في البحر في أزمنة ما قبل النفط، ويعمل بوسائل بدائية لاستخراج اللؤلؤ من أعماق البحر إلا أنه وبعد تلك الحقبة التحق بالعمل في شركة النفط (ارامكو) وعمل بها كهربائيا أو سباكا أو لحّاما، وهي مهن جديدة بالنسبة لهم، فصار بعضهم يتحدث اللغة الإنجليزية مثل أهلها، وهو في الوقت نفسه لا يعرف شيئا عن اللغة العربية، غير اللهجة المحلية، ذلك لأن الشركة تعتمد تعليم اللغة الإنجليزية في مرافقها، بحكم أنها شركة أمريكية من الأصل.

والمفارقة أيضا إني وجدت من بين الحضور شخصا يتعاطى مع الساعات، فهو يقوم بإصلاحها وإعادتها للعمل في حال العطل، رغم أن القليل من الحضور من يملك ساعة في يده، وإذ أن الساعة هي تقنية حديثة على المجتمع، لا يلبسها الا القلة، ومع هذا فإن ابراهيم الدرازي وهو رجل سبعيني من رواد هذه الديوانية الصغيرة لا يقرأ ولا يكتب، لم يمتلكها وحسب، بل يستطيع أن يبعثر أجزاءها ثم يعيد تركيبها ويصلح ما تلف منها، وكان من بين الحضور ايضا رجل تخطّى الخمسين من العمر وهو شاب بالمقارنة مع البقية يدعى احمد القديحي يعمل جزارا، وكان هناك شخص يحمل الاسم نفسه (احمد القديحي) لكنه يقوم بصيانة المركبات ومواطير الماء، ومن بين الحضور وجدت الفلاح والطبيب الشعبي والصياد، وكل واحد خبير في مهنته، بل كان من بين الحضور من يتعامل مع نقل القمامة، وهي مهنة متواضعة، ربما استصغرها الناس، الا أن صاحبها يجد نفسه بين أهله ولا أحد يتمادى عليه أو يحتقره لمهنته، أو يرفض الأكل معه، أو القرب العائلي منه، وليس من قبيل المبالغة

أنه في كثير من الأحيان تجده مدققا في نظافة شكله وثوبه أكثر من غيره.

الشاهد إن هذه الديوانية الصغيرة تضم العديد من أرباب المهن، يجمعهم القرب الجغرافي، والروابط الأسرية، وأنا بدوري وبوصفي مدرسا وجدت لي مكانا من بينهم، أجلس معهم ساعة أو ساعتين كل ليلة، وفي حال حالت الظروف دون حضوري يسألون عنّي بكل شوق، ولا يقبلون عذرا لأي تأخير أو غياب، وكنت أشعر وكأني في مدرسة، العلوم بها متنوعة، والخبرات متعددة، والأسماء كثيرة.

وذات مرّة كنت في المجلس إذا بشخص تبدو عليه الوجاهة، فهو الوحيد الذي يلبس غترة مع عقال مع مشلح، بينما تجد البقية يلبسون الكوفيات (الغترة أو الشماغ) ولكن بدون عقال، ويتم لبسها بطريقة بعيدة عن التكلف والأناقة، وكان هذه الرجل موضع احتفاء وتقدير، والكل كان يطلق عليه لقب "النوخذة"، في البداية لم أفهم سر الاحتفاء بهذا الرجل، الذي رغم أناقته تبدو عليه معالم الصلاح والطيبة والتدين، فضلا عن ابتسامته المستمرة، والبهاء في وجهه ظاهر رغم تقدمه في السن، وما لفت نظري في هذا الأمر أنه كان ينادي كل واحد من الحضور بإسمه الأول (أحمد، ابراهيم، حسن، علي)، بدون ألقاب (الحاج) أو كنية (أبوجاسم، أو أبو أحمد، أو أبوعلي)، مما زاد في حيرتي في فهم هذا الرجل ومستواه ومكانته، فقلت في نفسي:"ياخبر اليوم بفلوس بكرة يبقى ببلاش"، فلذت بالصمت لأستمع الى الحوار الذي دار بينه وبينهم، حيث تركز بشيء من التفصيل عن ذكريات هذا الرجل الذي يناديه الحضور يا "نوخذة"، أو "ابوصالح" مع أولئك الرجال في البحر، وأيّام الغوص، حيث أن معظم الحضور عاصروا حقبة ما قبل النفط، فعملوا في البحر وظهر لي من حواراتهم أن هذا الرجل كان "ربّان السفينة" أو "قائد العمل" في البحر، وكل أولئك الناس يعملون معه، وهو الذي يمنحهم أجورهم بعد رحلة الصيد، التي تستغرق ستة

أشهر من السنة ــ كما قيل ـ بالتالي فهم عمّال لديه، وهو صاحب فضل ـ في هذا الجانب ـ على الجميع، بيد أن نمط التعامل بين الطرفين لم يأخذ أي نوع من التكلف او التعقيد، بل أن الحالة الأخوية هي السائدة بين الجميع فهو يتعامل معهم بصورة لا تنم عن أنه أغنى منهم، أو أنه في وضع المتفضل، فهو "تاجر" يملك السيولة ولديه محل لبيع معدات الصيد ومعدات الزراعة، وهو بالتالي يملك المال الذي يؤهل لأن يملك سفينة شراعية، يدخل بها البحر، ويحلم معها طاقم عمل من الرجال الذين يقومون بالغوص الى أعماق البحر وصيد اللؤلؤ، ليسلم إليه، ويمنحهم ـ بعد ذلك ـ أجورهم، ويرافقهم خلال الرحلة البحرية، ويكلف واحدا من عماله بالإشراف على محله، وأحيانا يعين "نوخذة" آخر يقوم بمرافقة الطاقم ويبقى هو في البلاد يشرف على المحل، وهو لم يصل إلى هذا المستوى الا بعد سنوات من العمل الشاق.

لقد لفتت نظري تلك العلاقة بين هذا النوخذة أو الرجل الكبير وبين أولئك الذين يعملون معه، فهو في الوقت نفسه رئيسهم، وهو أيضا رفيقهم في المشقة والمعاناة.. ولا يقف دوره عند ذلك الحد بل يساعد محتاجهم، وفي حال تأهل أحدهم للزواج يقوم هو بنفسه بخطبة المرأة ويساعد في دفع مهرها.

وخلال حديثهم معه تم تداول مجموعة حوادث جرت لهم، بعضها مأساوية مثل غرق بعض الصيادين، أو ما جرى لبعضهم في إحدى السنوات حيث هبّت ريح شديدة لم تترك لمراكبهم وسفنهم الشراعية موقعا، فغرق من غرق، ونجا من نجا، وبعضهم وجد على سواحل دول خليجية أخرى، فقد قال أحدهم بأن أخاه تاه في تلك السنة فوجدوه بعد سنوات في سلطنة عمان، إذ الأمواج نقلته إلى هناك.

إن هذا اللقاء نقلنا جميعا إلى أكثر من خمسين سنة مضت، وفي فترات ما قبل النفط، والحياة التي كانت في تلك الفترة، حيث أن الجميع يهمّهم أن يقفوا عند تلك الأيّام..إذ أن النوخذة "ابوصالح" التفت الى حسن الفارس وطلب منه اين يسمع الجميع أغنية من

أغاني البحر في الزمن الماضي، إذ أن الرحلة البحرية الصيفية الشاقة لا تخلو من لحظات للهو والغناء والراحة، فهم يغوصون في العمق في النهار، لكنهم يخلدون إلى الراحة واللهو في الليل، وليس لهم وسيلة في ذلك الا الغناء، وفي كل رحلة بحرية يتم تزويدها بكافة متطلباتها، ليس من الأكل والشرب ومعدات الغوص، بل حتى أدوات اللهو والطرب مثل الطبلة والطار، حينها قام الفارس وهو مطرب الرحلة ويطلق عليه "نهام" بترديد بعض الأبيات الشعرية التي تنسب لشاعر تاروتي يدعى عيسى بن محسن فقام يردد:

ودعتكم بالسلامة يا ملا عيني
وخلافكم ما غمض جفني على عيني
ظليت يا سيدي جسم بليا روح
الراس مني وجع وظل الجسد مطروح
كل العرب هيّدت وانا شجي الروح
يانور عيني مثل ما راعيك راعيني

حينها أطلق النوخذة أبوصالح تنهيدة كادت دموعه تسيل على خدوده، فلاذ بالصمت قليلا، ثم سرح في عالم الخيال، ورفع رأسه الى السماء، وهو يقول:"الله يرحم تلك الأيام.. اللهم غيّر سوء حالنا بحسن حالك يا كريم.. الحمد لله على النعمة وطولة العمر".

بعدها أخذ كل واحد يسرد حكاية جرت له في تلك الأيام، عدا أن الجميع يشكرون الله على نعمه، ففي ذلك الزمن كان الواحد يشقى ويتعب كي يحصل على قوت يومه، بينما اليوم نرى الخير في الوقت الحاضر أفضل، ونعم الله أكثر الآن، إذ أن كل واحد بات في مهنة تختلف عن مهنة صيد اللؤلؤ، وإن بعض المهن أنظف مثل مهنة الخيّاط والنداف ، بينما هناك بضع المهن لا تزال شاقة كالفلاح والصياد والخباز والبنّاء..أما النوخذة الذي كان تاجرا للمعدات البحرية وتاجرا في اللؤلؤ الطبيعي ويطلق عليه "طواش" أيضا، بات الآن تاجرا في العقار، يتعامل مع الأراضي، فهو تاجر وبقي

تاجرا ولا زال تاجرا، لكنه لم يتنصل ولم ينس الذين عملوا معه أيّام الفقروالمعاناة.

على ضوء ذلك، وجدت أن ثمة تطورا في الحياة الاجتماعية شهدته تلك الحارة، إذ انتقلت من عالم بدائي للغاية، وكما يقولون لا ماء ولا كهرباء، والأكل هو التمر واللبن والسمك، نجدهم يتنقلون بهدوء الى عالم أكثر تطورا، وكان "النوخذة" نفسه نموذجا لذلك فهو يملك سيارة خاصة، ويلبس الغترة والعقال والمشلح، ويضع على بدنه ولباسة العطور الفاخرة.

"النوخذة" بعد تلك الجلسة التي دارت حول الذكريات، التفت لي يسأل عنّي وعن إسمي وعن بلدي وعن مهنتي، فقلت له بأني "مصري" وإسمي عبدالسميع عطا الله، واكنى بـ "ابو تامر"، واعمل "مدرسا"، حينها فرح النوخذة بي وقال بأنه زار مصر قبل بضع سنوات بغرض العلاج، وتعرّف على أوضاع الأخوة المصريين، فرحب بي مبديا استغرابه من وجودي هنا، فقلت له :"إني أشعر بالسعادة مع أهلي الذين لم يشعروني بأني غريب عليهم".. تفاعل النوخذة معي، ودعاني ـ مع الجميع ـ لحضور حفل زواج أحد أبنائه يوم الجمعة المقبل.

وفي اليوم المحدّد، أردت أن أعرف طقوس وعادات الزواج لدى أهل الحوامي كيف يتم، وكان يمكن أن أعرفها بمجرد الحديث مع أحد أبناء الحارة، لكني فضّلت أن أشهدها بنفسي وأعرف تفاصيلها، وأعرف كيف يتم التجهيز لذلك، ففهمت بأن كل شيء يتم بالتعاون بين أهل الحارة، ففي الليل يذهب الجميع إلى عين ام عريش، وهي العين التي تقع على الطريق المؤدي الى المدرسة، وهناك يتم ذبح البهائم التي سوف تقدم إلى الناس، إذ يتم ذبح عدد من الأغنام، أو بقرة واحدة يقوم بذبحها أحد الجزارين، والذي يفترض فيه القوة والمهارة، فإذا كانت البهائم أغناما فهي سهلة عليه، فالخروف يمكن بطريقة معينة إلقاؤه على الأرض ومن ثم يتم ذبحه، لكن الصعوبة إذا كانت الذبيحة بقرة، فهو يقوم بقوته وبمساعدة الآخرين بإلقائها على الأرض ثم ربطها بحبل قوي حتى لا تتحرك

وقت ذبحها، ثم يوجهها صوب القبلة، ثم يقول:"بسم الله والله أكبر"، ويذبحها شيئا فشيئا بسكين حادة جدا، فيقطع أوردتها الأربعة واحدا بعد آخر في عملية متواصلة وسريعة، ولأنها مكتّفة بحبل قوي ومتين فإن حركتها محدودة، لكنها واضحة، فيفور الدم يغطي كل تلك المنطقة، وبعد أن تلفظ أنفاسها، يقوم الجزار نفسه أو القصّاب بفصل الرأس عن الجسد، وشق البطن واستخراج الأحشاء، وفرز الأجزاء التي يجوز ويحل أكلها، والتخلص من التي لا تؤكل أو التي لا يجوز أكلها، فضلا عن تنظيف البطن من المخلفات والدماء، ثم يقوم بتعليقها على واحدة من النخيل وسلخ الجلد عن الشحم واللحم بطريقة لا تخلو من مهارة، وليست بمقدور كل أحد القيام بها، إذا لم يكن متخصصا، وبعد ذلك يتم تقطيع الذبيحة وتوزيعها على السلال أو الأواني الكبيرة قطعة قطعة، ونقلها الى العين المجاورة لتغسيلها وتنظيفها، فتكون مهنة القصّاب أو الجزّار قد انتهت، لتأتي مهنة البقية الذين يقومون بباقي العملية، فيغسلون اللحم، ويجهّزون الأرز، وكلها تتم في المكان نفسه، إذ يتم تنظيف الأرز ثم غسله بالماء مرة أو مرتين أو ثلاثا عن طريق وضع السلال بالماء ورفعها قبل أن تمتليء حتى لا يذهب الأرز مع الماء، وتتكرر العملية أكثر من مرة، وما أن يغادروا حتى يتم تنظيف المكان، وكأن شيئا لم يكن.. فاللحم بات جاهزا، والأزر بات جاهزا، وكذلك يقوم جماعة أخرى بتجهيز باقي متطلبات الطبخ، كالطماطم والبطاطس والبصل وما إلى ذلك.

وفي الصباح الباكر يأتي الطبّاخ، ومعه عدد من المساعدين، بتعبئة القدور بالماء القراح، ووضع كل قدر على ثلاثة أحجار كبيرة، تعارف عليها العرب بـ "الأثافي" ويتم غلي الماء عن طريق الخشب والذي يتم جمعه من جذوع النخل وسعفه وبعض المخلفات الزراعية، فما أن يغلي حتى يقوم الطبّاخ بدوره في وضع المكوّنات في القدر من لحم وأرز وملح وخضار وبهارات.. ولا يقوم بهذه العملية إلّا رجل أتقن هذه العملية، ولديه خبرة طويلة في إعداد

الموائد الكبيرة والولائم الموسعة، وفي غالب الأحيان تجد هذا الطباخ يذهب سنويا إلى الحج أو العمرة كـ "طباخ" لدى إحدى الحملات، مهمته إعداد الطعام لحجاج بيت الله الحرام، ويقد يكون عاملا او مرتبطا بحملة غير محلية أيضا، كأن تكون من الكويت أو البحرين.. وما أن يدخل وقت الصلاة الّا والوجبة جاهزة، يتم تقديمها في صواني وصحون كبيرة، وتنقل من مكان الطبخ إلى مكان الأكل، وفي الغالب يكون الموقعان متقاربين.

أما من يحضر الى الطعام فإنهم في الغالب مدعوون رسميا من قبل أهل العريس، الذين يكلفون شخصا معينا يقوم بزيارة المنازل واحدا بعد آخر، ويقول لكل بيت :"فلان بن فلان يسلم عليكم ويدعوكم لمباركته يوم كذا وكذا في المكان الفلاني"، ويحدد هذا الداعي الوجبة فيقول:"الغذاء والعشاء"، وما يحضر إلى الغذاء أو العشاء إلّا من كان مدعوا لذلك، وإذا لم يكن قد دعي ففي الغالب لا يحضر، انطلاقا من مثل شعبي يتم تداوله يقول من "أكل بلا عزيمة قعد بلا حشيمة"، أي أن الذي يذهب إلى غذاء وهو غير مدعو فهو غير محترم، مع العلم ان الجميع تتم دعوته شفهيا، وبالإسم مع تحديد الزمان والمكان، وبعد أن يتم تناول طعام العشاء يأتي شخص ذو صوت جميل، يقرأ بطريقة خاصة قصة زواج النبي (ص) من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ثم يردد بعض المدائح للنبي وآله، شبيهة بمدائح الطرق الصوفية التي عندنا في مصر وفي الدول الافريقية، ثم يأتي العريس الذي يكون جماعة قد قاموا بتغسيله وتنظيفه وتعطيره، فيأتي لابسا كوفية مع عقال وثوب وحذاء، كلّها جديدة لم تلبس من قبل، مع مشلح ذي لون فاتح (سكّري او بني فاتح)، فتكون بيده سبحة من النوع الفاخر، فيجلس قليلا يسلم عليه الناس ثم ينقل من الموقع محفوفا بأهازيج الناس وتصفيقاتهم، يكررون بعض الأناشيد المتوارثة، وأبرزها:

يا سامع الصوت صل على النبي
أول محمد وبن عمّه علي

أو:

يا معيريس عين الله تراك
القمر والنجوم تمشي وراك
او شيل الله يبا الحسين شيلا الله
الشمس ردّت لعلي عقب الصلاه

ثم ينقل إلى أحد المساجد ليصلّي ركعتين يتقرب بهما إلى الله شكرا على توفيقه جلّ شأنه لإكمال نصف دينه، ليتم إكمال عملية الزفاف إلى مكان زواجه، في منزله أو في منزل أهل زوجته.

وفي اليوم الثاني، في "الصباحية" كما نقول نحن في مصر، يأتي العريس في الصباح الباكر ليجلس في استقبال الناس ومباركتهم له بالزواج، وذلك في بيته أو في المكان الذي تمت فيه مراسم الزفاف بالليل، وتقوم العائلة بتوزيع الخبز البلدي مع الحلوى التي يتم جلبها من القطيف أو من البحرين، فكل من قام بتقديم التهنئة للعريس وأهله يقدّم له صحن صغير مغطى برغيف من الخبز، ما أن يرفع ذلك الرغيف حتى تبدو الحلوى فيتناولها، أو يتناول بعضها، ثم يقدم للضيف فنجان قهوة أو كأس شاي صغيرا.

وبهذا تتم عملية الزواج، التي وجدت أنها تجسد حقيقة التعاون بين أبناء المجتمع والحب بين أبناء الحارة، وحارات جزيرة تاروت، حيث ان كل واحد يقوم بدور ما في هذا الزواج، ولولا تكاتف الجميع وتقاسم المهام لما حصل الزواج، وهناك مثل يتداوله الناس في تاروت مفاده :"التعب لألفين والفرح لإثنين"، إشارة إلى الجهود التي تبذل في سبيل الزواج، ومن يسعد في هذا الزواج هو العريس وعروسه.

وحينما جئنا الى زواج بن النوخذة "ابوصالح" رحّب بي ترحيبا خاصا، شاكرا لي هذا الحضور قائلا:"شرفتنا يا باشا"، مستخدما بعض مفردات اللهجة المصرية، فما كان مني الا شكرته على حسن الاستقبال وحسن الضيافة، قائلا له وبلهجة اهل تاروت:"على البركة نوخذة بالرفاه والبنين".

وبعد ثلاثة أشهر من المشاركة في زواج ابن النوخذة "ابوصالح" تناهى إلى سمعي نبأ وفاة النوخذة نفسه، وذلك خلال سفره إلى البحرين، حيث وافته المنية هناك، وجيء بجثمانه، فخرجت الناس في مشهد مهيب، ونقل الى المقبرة، بعد أن تم تشييعه من وسط البلدة مرورا بعدد من الحارات والمزارع والبساتين،وهناك بدت العملية وكأنها أدوار مقسّمة كذلك، كل يعرف ما ينبغي عليه فعله ـ مثلما كان في الزواج ـ فواحد قام بتحضير الكفن وتفصيله، والتأكد من سلامته وقوّته، وآخر قام بعملية التغسيل، إذ أدخل الجثمان في مكان ليس لكل أحد أن يدخله، فهو منطقة محظورة إلا على إثنين أو ثلاثة فهم الذين يقومون بتغسيل الميّت، والبقية يجلبون لهم الماء من عين ماء قريبة من الموقع.

وقد لاحظت أن شخصا يدعى الحاج رضي الشايب فقد كان كبيرا تعلوه الهيبة والوقار ويتحدث بحكمة وهدوء لابسا كوفية (غترة) بيضاء نظيفة بدون عقال، ومشلحا أسود سميك، جاء وانتحى جانبا وجلس وقال عبارة :"رحم الله من يقرأ الفاتحة"، وراح يتمتم بينه وبين نفسه، أي أنه يقرأ سورة الفاتحة وسورة الإخلاص، وجاء إليه أبناء النوخذة وسلموا عليه بكل تقدير واحترام، حتى أن أحدهم قبّله على أم رأسه، هذا الرجل هو الذي قام بالصلاة على الميت فعرفت ـ من خلال ذلك ـ أنه أحد رجال الدين، وربما كان متخصصا في هذا الأمر فقط، فقام بتقدم الجموع أمام الجثمان، وكلهم قد وقف خاشعا بدون أن يخلع أحد منهم حذاءه، وإذا ما خلعه فإنه يضعه تحت رجليه، فكبّر هذه الرجل عدة تكبيرات، ومع كل تكبيرة كان يقرأ دعاء مأثورا، يستغفر الله فيها، ويدعو للمؤمنين والمؤمنات، ويدعو للميت، ولفت نظري أنه في إحدى التكبيرات صلى على النبي الصلاة الإبراهيمية المتعارفة عندنا:"اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد".. وبعد إتمام الصلاة قام المشيّعون ينقل الجسد الى مثواه الأخير، وهناك أيضا أجريت عدة مراسم فبعد حفر القبر وهو عبارة عن حفرة طولها متر ونصف

وعرضها متر ونصف، وعمقها متر ونصف، في وسطها شقت حفرة بطول القبر ولكن بعرض 20 سم تقريبا، فقد أنزل الجسد من النعش واستقبلته ثلاثة أشخاص في وسط القبر وأدرج ذلك الجسد في تلك الحفرة الصغيرة، فقد وضع الجسد على جنبه، بحيث يكون وجهه متجها صوب القبلة، وجيء بقطعة حجر صغيرة وقطعة قماش خضراء اللون وضعت تحت خد المرحوم، عرفت فيما بعد أن هذا الحجر هو نفسه الحجر الذي يسجدون عليه، وقد جلبت من كربلاء في العراق، ثم جاؤوا بعدد من الأخشاب قطعت من جذوع النخل وبها تمت تغطية الحفرة الصغيرة التي تسمى "اللحد" ثم جاؤوا بحصير تم صنعه من ورق سعف النخيل أيضا وغطوا اللحد المغطى أصلا بالجذوع، وأهالوا قليلا من التراب على القبر، جاء بعد ذلك الحاج رضي الشايب الذي صلى على الميت وأخذ ينادي النوخذة بإسمه الأول :"يامحمد بن صالح" وكرّرها ثلاث مرّات، ثم راح يخبره بصورة الوضع الذي سوف يحدث له بعد ذلك، وما لفت نظري في هذا الأمر أن هذا الرجل الصالح وهو وسط القبر يخاطب النوخذة الميت بصوت ذي لحن ونغم حزينين، يعلّم بهما هذا الميّت كيف يتعامل مع الموقف القادم، انطلاقا من أن الموت محطة انطلاق من الحياة الدنيا الى الحياة الآخرة، فكان يقول له:"يامحمد بن صالح، إعلم وافهم أنها آخر ساعة من ساعات الدنيا، وأول ساعة من ساعات الآخرة، فما أن نفارقك سوف يأتي الملكان الكريمان يسألانك عن ربك وعن دينك وعن كتابك وعن نبيك وعن أئمتك، فلا تحزن ولا تخشى وأجب بلسان عربي فصيح، وقل: الله ربي، محمد نبيي، والقرآن كتابي، والكعبة قبلتي، وعلي أمامي، والحسن إمامي، والحسين إمامي، والسجاد إمامي، والباقر إمامي، والصادق إمامي، والكاظم إمامي، والرضا إمامي، والجواد إمامي، والهادي إمامي، والعسكري إمامي، والمهدي إمامي" وتلك أسماء أئمة الشيعة الإثناعشرية التي يتنمى لها النوخذة أبوصالح، وكافة أهالي

الحوامي..ثم مضى يقول له:"إعلم بأن الموت حق، والعذاب حق، والجنة حق، والنار حق، وسؤال منكر ونكير حق، والبعث حق ... الخ".

وبهذه الصورة استمر لأكثر من عشر دقائق وهو يخاطب الميّت ويحدّثه ويلقنه مباديء الاسلام ويذكره بها، اعتقادا منه أن هذا الميت امام تجربة أخرى، ومواقف صعبة سوف تواجهه بعد الموت.. وختم كلامة بدعوة الحضور إلى قراءة الفاتحة على روح الميت، بعد انهالت الترب على القبر، وصار الجسد تحت الأرض، بعد ذلك قام عدد من الحضور بتسوية القبر، وايجاد ما يشبه الحفرة المطولة وصبّوا عليها الماء، ثم غادر الجميع المنطقة التي بها ذلك القبر.

خلال ذلك الموقف كنت مذهولا من هذا الأمر، وانتابتني رهبة استمرت معي وأنا أقوم بالسلام على اهل المتوفى، واقول لهم كما يقول الناس :"عظم الله أجوركم" ذلك في مشهد مهيب يشعر الواحد بأن الحياة تسير في طريق الزوال، وفاجأني أحد أولاده بأن قال لي وأنا أسلّم عليه:"إن الوالد ذكرك بخير، وكان عازما على دعوتك بعد أن يأتي من البحرين، لكن القدر لم يمهله"، حينها لم أتمالك نفسي فبكيت معه، لأن المرحوم كان نبيلا محبا للخير، ومحبا للناس.

وكنت أظن أن مراسم الموت تنتهي بالدفن بعد الغسل والكفن، وما تم فعله من ممارسات، لكني عرفت بعد ذلك أن الوضع ليس كذلك، فالميت مقدّر ومحترم لدى اهل تاروت بصورة مختلفة، إذ يتم نصب العزاء عليه ثلاثة أيّام متتالية، يجتمعون في مكان يدعى "الحسينية"، وهي المكان الذي تقام فيه مراسم عاشوراء، ويأتي رجل دين خطيب، مثل الملا حسين الفضل ويتحدث امام الحضور لمدة نصف ساعة، يتناول موضوعا من الموضوعات وفي الغالب ما يكون وعظيا أخلاقيا، يذكر فيه المتوفى وأخلاقه وبعضا من سيرته.. وقبل هذا الخطيب يأتي شخص ذو صوت رخيم يقرأ شيئا يطلق عليه بـ "التصديقة" وهي عبارة عن أبيات شعرية، ومقاطع نثرية تذكر الحاضرين بالموت والحساب، فمن يسمعها لا بد وأن يخشع

قلبه، ويخرّ تواضعا لعظمة الله، ولا يجد هذه الحياة سوى أنها محطة عبور، ينبغي أن تكون كذلك لا أكثر ولا أقل، وبعد أن ينتهي يقرأ شيئا من القرآن الكريم.

وفي هذا الوقت وقبل أن يأتي الخطيب هناك جماعة تقوم بتوزيع اجزاء من القرآن الكريم على المعزين ليقرأوا تلك الأجزاء ويهدون ثوابها لروح المتوفى، وتستمر هذه العملية حتى يأتي الخطيب ويلقى خطبته، وتعود مرة أخرى بعد نزوله من المنبر المعد لهذا الأمر.

وما أن يخلص الواحد من قراءة القرآن يقوم بالسلام على أهل المرحوم لتقديم واجب التعزية، ومن ثم الخروج من ذلك المحل، هذا الأمر يتكرر ثلاثة أيام في الصباح العصر، وأما في اليوم الثالث يضاف له مجلس ثالث في الليل ويطلق عليه ليلة الوحشة.

لقد شعرت حقا بأن حادث الموت ليس طبيعيا عند هؤلاء الناس، وإن احترام الميت مثل احترام الحي، فالميت يقدّر ويحترم وينقل الى قبره بكل حفاوة، ثم يتم الاجتماع للتعزية فيه، فقد هالني هذا المنظر وكشف لي صورة من صور التآخي والتعاون في هذا المجتمع الذي من يعش فيه يجد حلاوة الألفة.. وعرفت لماذا هذا المجتمع متدين، ويغلب عليه حالة الخوف من الله، وتقل في أوساطه الجريمة؟.

وبعد هذه المراسم سألت أحد اصدقائي من أهل الحوامي:

ـ لو أنا توفيت هنا، هل ستقيمون على روحي كل هذه المراسم؟

فرد علي بكل حسم وبنوع من المزاح:

ـ جرّب الموت، وسوف ترى!!!

جمهرة

ذات جمعة قصدت الساحة التي تقع في منتصف حارة الحوامي، وهدفي هو البقالة لشراء علبة كولا مع دخان، اذا بي أقف على جمع كثيف من الناس متجمهرين قرب أحد المنازل، وبدافع من الفضول، ولأني صرت أحد أفراد الحارة توجهت صوب التجمع لعلّني أعرف القصة، وأقف على سبب هذا التجمهر غير الطبيعي، بل واللافت للنظر.. اقتربت من الجمع إذا بي أسمع صوت أحدهم لا يختلف عن صوت المؤذن الذي يصدح إعلانا بدخول وقت الصلاة، أصغيت سمعي قليلا إذ بذلك الصوت يؤذن :"الله أكبر.. الله أكبر"، فقلت في نفسي أن ثمة حدثا كبيرا جرى، وهذا يذكر الله، فلا غضاضة على أحد إذا ما جرى ذكر المولى عزو وجل على لسانه، اقتربت أكثر إذا به يكرر العبارة أو الفقرة الثانية من الأذان :"اشهد الا إله إلا الله.. اشهد الا إله الا الله"، فقلت في نفسي أن شيئا ما سوف تراه وتسمع عنه، عليك بالصمت فالصمت حكمة، والعجلة من الشيطان، فوقفت قرب التجمهر وكلهم صامتون يستمعون للصوت الذي بدأ يدخل في ذكر باقي أذكار الأذان، حينها لم يعد لدي أدنى شك بأني استمع الأذان، خاصة بعد أن قال :"أشهد ان محمدا رسول الله .. أشهد ان محمدا رسول الله" ثم أضاف عليها الشهادة الثالثة لدى الشيعة وهي :"أشهد أن عليا ولي الله.. أشهد أن عليا ولي الله"، واعقبها بعبارة الدعوة الصريحة إلى الصلاة، وهي :"حي على الصلاة.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح .. حي على الفلاح"، ثم تلا عبارة موجودة في أذان الشيعة: "حي على خير العمل.. حي على خير العمل" مما جعلني متيقنا بنسبة 100% إن كل ما يقال هو أذان، وتـأكدت بأن الصوت هو صوت أذان لا صوت دعاء ولا صوت قرآن، ولا أي شيء آخر، فزاد تعجبي أنه في غير أوقات الصلاة، فالوقت هو التاسعة صباحا، فهذا الوقت ليس وقت صلاة، وحتى صلاة الضحى الموجودة لدينا ـ نحن أهل السنة والجماعة ـ هي عبادة نافلة، وليس في النوافل أذان أو إقامة، وقلت في نفسي

:"سبحان الله ألهؤلاء الناس صلاة لا نعرفها، تقام في التاسعة صباحا؟" فصبرت ووقفت مع الجمع الذي بدأ يتزايد شيئا فشيئا، والناس في صمت يبعث على الحيرة لدي، وإن لم تكن هناك أي قسمات أو معالم لفرح أو حزن، بادية على تلك الوجوه..وخشيت أن أتساءل عن الوضع فأتعرض إلى ردة فعل غير مقبولة بالنسبة لي، فواصلت وقوفي مع حيرتي وتساؤلاتي الكثيرة عن سر هذا التجمع، وسر هذا الأذان، الذي لم أجد أحدا قد صلّى بعده.

بعد ذلك بلحظات رأيت شخصا كبيرا في السن يدعى "ابوعلي"، وهومن روّاد مجلس البحراني مع إمرأة من الواضح أنها زوجته، قد خرجا يجرّان بعض الحقائب والسلال وأكياس الأزر مثل التي كان يشتريها "ابومهدي"، لكنها هذه المرأة معبأة، ووضعت كل هذه البضائع والأكياس والحقائب والسلال أمام الباب، إذا بعدد من الأشخاص يسلّمون على هذا الرجل العجوز، وكأنهم يودعونه، ولاحظت عددا منهم يبكون بمرارة، وسمعت من داخل البيت أصوات نساء يبكين أيضا، وأنا في حيرة من أمري، فالمنظر غريب علي في كل شيء، وكلما طال وقوفي وسط هذا الجمع ازددت حيرة، وزادت الأسئلة في داخلي حينما رأيت معظم تلك الجموع يسلمون على ذلك الرجل الطاعن في السن ويقولون له :"أبو علي قلدناكم الدعاء والزيارة".. فأي دعاء وأية زيارة؟ دعاء لمن وزيارة من؟ ومن سوف يزور من؟ ومن سوف يدعو لمن؟ وما السر؟ طال البكاء وارتفعت الأصوات يوم جاءت سيارة أجرة (تاكسي) صغيرة، وقام الحاضرون بتحميل تلك الحقائب والأكياس فيها، والكل يقول:" في أمان الله ابوعلي".. حينها عرفت أن الرجل سوف يسافر، أو هو في طريقه إلى السفر، ولكن هل الذي يريد السفر يقيم ـ أو يقام له ـ هذا الاحتفال؟ ولماذا كل هذا البكاء والنحيب المر؟ ثم لماذا لم يبك الكل اذا كان ثمة ما يستدعي البكاء؟ وهل سوف يسافر مهاجرا لن يعود؟

وقفت أسير الأسئلة الحائرة، انتابتني الخشية وافتقدت الجرأة لأن أسأل أحدا عن السر وراء الأذان في غير وقته، والبكاء بدون سبب واضح لدي، فلا أحد مات، ولا أحد احترق بيته، ولا أحد طاله مكروه، بدليل أن الجمع بعد ذلك المشهد تفرّقوا كل مضى في حال سبيله.

ولأنني آليت على نفسي أن أكون ضمن هذا المجتمع الذي أنا فيه، فلابد أن أعيش احزانهم، وأشاركهم أفراحهم، فإذا كان المشهد فرحا فلنفرح مع الفرحين، وإذا كان حزنا فعلينا أن نواسي المحزونين، فاستجمعت قواي وجهّزت أفكاري وأسئلتي، ونظرت الى الأشخاص المفروض أن اسألهم، فاقتربت من شخص كهل قد تجاوز الأربعين من عمره، وسبق أن التقيت به فوجدته لبقا مؤدبا لا يؤذي أحدا، وكنت على يقين بأن إذا ما صدر مني أي خطأ فهو لن يحرجني، ولن يقول لي شيئا يجرح كرامتي، فبادرته بالسلام أولا، والتحية ثانية، والسؤال عن أحواله ثالثا، فرد السلام والتحية بأحسن منها، فقلت له:

ـ أتسمح لي بسؤال يدور في خلدي، ولم أجد شخصا غيرك أسأله أياه؟

فرد علي وهو مبتسم، وقد عرف ماذا أريد أن أسأل:

ــ أعرف أنك تريد أن تسأل عن سبب هذا الجمع، وهذا البكاء، وقبله الأذان

قلت له:

ـ نعم وقد اختصرت علي الطريق، هذا إذا لم يكن لديك أي مانع، ولا يوجد إحراج

ــ الخلاصة أن الحاج "أبوعلي" سوف يسافر وجاءت السيارة الصغيرة لتنقله مع زوجته إلى الحافلة (الباص) في السوق، وهؤلاء الناس جاؤوا لوداعه، والوداع صعب فبكوا وأبكوا.

ــ وهل كل شخص يسافر انتم تقيمون مثل هذا المحفل؟

ــ لا .. سفر عن سفر يختلف!

ــ كيف؟ لم أفهم؟

ـ نحن نقيم هذا المحفل لمن يريد السفر إلى الحج، أو من يقصد الأماكن المقدسة في العراق أو إيران، يتم التجمع لوداع من يعتزم السفر لهذين الهدفين، ونطلب منه الدعاء بعبارة: "نسألكم الدعاء، أو قلدناكم الدعاء والزيارة"، وهو بدوره يرد علينا: "علينا الدعاء وعلى الله الإجابة".

ـ كل هذا جميل، ولكن لماذا كل هذا البكاء، حيث من المفروض أن يفرح الجميع، لأن المسافر ذاهب في طريق الخير، وليس لأي شيء آخر؟

ـ ملاحظة جميلة ومهمة في هذا الشأن، فالكل يحتمل أن المسافر ربما ذهب ولا يعود، وكم شخص سافر ولم يعد!!

ـ ولهذا هم يبكون للوداع؟!

ـ نعم..

ـ إذا كان كذلك فما سر الأذان الذي يتم بصوت عال يبعث على الريبة والغرابة.

هنا أخذ يشرح لي القصة كيف نشأت لدى أهالي تاروت، بقوله إن المسألة متوارثة منذ أزمنة الغوص، حيث تجتمع الرجال والنساء لوداع رجال الغوص الذين سوف يتركون أهلهم وديرتهم ويتوجهون صوب البحر حيث الأهوال والمخاطر، واحتمالات الموت والغرق واردة.. لذلك تتم عملية السفر باحتفالية يغلب عليها البكاء، لأن مدة السفر إلى الغوص تصل إلى ستة أشهر، فصرنا إذا ما شخص أراد السفر سواء للعمل في البحر، أو لأداء فريضة الحج، أو لزيارة الأماكن المقدسة بالعراق وإيران، تقام هذه الاحتفالية، والموقف الذي رأيته يعتبر أقل من غيره، ففي بعض الأحيان نسمع ما يشبه المأتم، لأن السفر إلى الغوص مغامرة وأمام المسافر أخطار عديدة، كذلك الحال بالنسبة للسفر إلى الحج أو إلى العراق وإيران، يحتمل الأخطار نفسها، فهو طريق محفوف بالمخاطر والأهوال، كانت في أزمنة سابقة تتم عن طريق الحمير والأبل، الآن عن طريق

السيارات والحافلات، وحصل أن عوائل بأكملها انتقلت إلى رحمة الله، بسبب حادث اصطدام، أو حادث انقلاب، أو أي شيء، فهناك من يسافر وهو لا يعلم حقا هل سوف يعود أم لا

وأما بالنسبة للأذان فتلك هي الأخرى عادة اجتماعية انطلاقا من كون هذا المسافر متوجه الى عبادة، فالعمل في البحر عبادة، والحج عبادة، وزيارة الأماكن المقدسة عبادة.

هنا ـ وبعد هذا الموقف ـ عرفت سبب هذا التجمع، فما كان منّي الا تقديم الشكر لهذا الرجل على هذا الشرح الوافي، لكن الحدث أضاف لدي انطباعا جديدا عن علاقة العوائل في هذه الحارة مع بعضهم، والتي لا توصف إلا بأنها متميزة، التي تجعل الواحد يبكي لأن جاره سوف يسافر، وذلك خوفا من أن يطاله خطر من أخطار الطريق، ورغم علمه أنه سوف يسافر من أجل عبادة، ومن يترك أهله ويتوجه في سبيل الله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وهو أعرف بماذا يجازي عباده.

وما أن أراد صاحبي الانصراف حتى استوقفته لأسأله واستزيد منه، فقلت له:

ـ اتسمح لي بسؤال آخر، وآسف على الازعاج.

فردّ علي محفزا لي :

ـ لا يوجد أي إزعاج، تفضل

ـ ذكرت الأماكن المقدّسة في العراق وإيران، فما تعني بذلك؟

ـ أعني ـ إستاذي ـ أن العراق تضم في ارضها قبورا لعدد من أئمة الشيعة وهم علي بن أبي طالب، الحسين بن علي بن أبي طالب، موسى بن جعفر الكاظم، محمد بن علي الجواد، علي بن محمد الهادي، والحسن بن علي العسكري، إضافة الى شهداء واقعة كربلاء وبعض أصحاب الأئمة وانصارهم ومقاماتهم، فضلا عن قبور بعض الأنبياء مثل آدم ونوح وهود وصالح.

ـ يعني مثل مقام السيدة زينب، وسيدنا الحسين، والسيدة نفيسة في مصر؟

ـ نعم مثلما قلت.. وهؤلاء يحظون بقدسية لدينا ونقصدهم، متى ما سنحت لنا الفرصة، ونحتفل بالزائر أو الحاج إذا غادر وإذا رجع.. ونأمل أن يأتي يوم نذهب فيه إلى مصر نزور سيدنا الحسين وسيدتنا زينب، وباقي المقامات هناك، فهي تحظى عندنا أيضا بقيمة معنوية كبيرة.. فنحن مثل المصريين في هذا الجانب، نحتفل بمواليد الأئمة والصالحين، ونعظم شأنهم ومقاماتهم.

بعد هذا الموقف، وهذا الحوار عرفت شيئا من الطقوس الدينية لدى أهالي تاروت ـ وأهالي الحوامي ـ ووقفت على صورة من التكاتف والمحبة، التي منبعها الدين الاسلامي، تأصلت هذه الصورة حينما حل شهر محرم حيث تشهد الحارة ـ كغيرها من الحارات ـ وضعا غير طبيعي إذ يحتفون على طريقتهم بالذكرى السنوية لاستشهاد الامام الحسين بن علي الذي قتله الحاكم الأموي يزيد بن معاوية بطريقة تبعث على الأسى، وإذا كان قاصد الحسين يحظى بهذا المستوى من الاحتفاء فما بالك بالحسين نفسه، إنهم يحتفون بالحسين وبمصيبة الحسين طوال العام.

وبعد بضعة أشهر من هذا الموقف كنت انتظر بفارغ الصبر ماذا سيفعل هؤلاء الناس في استقبالهم للعائدين من العراق، فكان الجواب كعين الشمس إذ خرج اهل الحارة عن بكرة أبيهم احتفاء بذلك الزائر، فالكل يقبّله ويحضنه، والبعض بدت عليه الفرحة على شكل ابتسامة عريضة، بينما البعض الآخر من فرط فرحته لم يتمالك نفسه فبكي بكاء لا يختلف كثيرا عن بكاء الثكلى.. إما المسافر العائد فهو يبادل الناس التحية، ويشكرهم على هذا الموقف، ثم يجلس في بيته ثلاثة أيّام يستقبل المهنئين الذين يحمدون الله على سلامته وسلامة عودته، ويقدم لهم ما تيسر له من الهدايا المنسجمة مع هذه المناسبة، والتي لا تعدو تقديم تربة حسينية، وهي قطعة صلبة من تراب كربلاء اعتاد الشيعة السجود عليها في الصلاة، ووضعها مع الميت في قبره، بوصفها تربة طاهرة مباركة، أو يقدم لهم سبحة

سوداء تستخدم لأداء تسبيحات مأثورة لدى الشبعة .. وإذا كان القادم من الحج فلا يختلف الوضع أبدا، ولكن الهدية من الحج تكون سجادة رسمت عليها صورة الكعبة المشرّفة، أو قنينة بها ماء زمزم المبارك، أو بعض الأطعمة مثل تمر المدينة المنورة، أو بعض العطر الشرقي مثل دهن العود أو زيت الورد وما شابه ذلك.

ولأني شهدت الحدث بأكمله، رافقت بعض الأصدقاء في وداع بعض الحجاج أو الزوّار، وكذلك الحال في استقبالهم، فعرفت ان الشعيرة لديهم مقدسة، ومقدس من حظي بالتوفيق لأدائها.

مجيء العائلة

خلال فترة إقامتي في الحوامي وجدت أن الظروف الاجتماعية مشجعة لأن أجلب عائلتي كي تعيش معي، فلدي ثلاثة أولاد مع إمهم، التي من الممكن أن تعمل مدرسة هي الأخرى، خاصة وإن نقصا واضحا في عدد المدرسات المحليات، كما هو الحال بالنسبة لعدد المدرسين.. وكما استقبلني اهالي الحوامي، واعتبروني واحدا منهم، هم أنفسهم استقبلوا عائلتي، فصارت "ام العيال" واحدة من نسوة الحوامي، تحضر محافلهن ولقاءاتهن ومجالسهن، والحال نفسه مع أولادي، وهذا الذي لم أكن أتوقعه، إذ صارت لديهم علاقات جميلة مع أطفال وشبّان الحارة، وجرت بينهم حالات شجار وصداقات وزمالة وما شابه ذلك، وكان هذا الأمر مصدر سرور لي، وأحد المحفزات التي جعلتني أبقى في مهنة التدريس في المملكة أكثر من زملائي الآخرين، الذين يأتون إلى المملكة ويزاولون مهنة التدريس بعامين أو ثلاثة أعوام، ثم ينهون عقودهم ويرجعون إلى مصر.. إذ كان الهدف ماديا فقط، وهذا بعكس ما كنت عليه أنا، فالهدف المادي كان في البداية، لكنه بات مساويا لأهداف أخرى، إذ شعرت بحبي لهذا المجتمع، وكل يوم يمرّ علي تتنامى لدي حالة من

الارتباط مع ابنائه، تنامت هذه الحالة إلى أن وصلت الى درجة الحب، فصرت أتألم لآلامهم وأفرح لأفراحهم، واتفاعل مع كل حدث يجري في الحوامي.. هذه الحارة التي لم أجد فارقا كبيرا بينها وبين باقي الحارات في جزيرة تاروت، إلا إنني صرت متعلقا بها، وأنا بذلك اختلف عن عدد كبير من زملائي الذين قدموا إلى المملكة من أجل العمل، الذين لم يجدوا في الحياة هنا غير العمل، ولا شيء غير العمل، فالواحد من هؤلاء يذهب الى المدرسة أو الدائرة التي يعمل فيها ليعود الى مقر سكنه منتظرا العودة مرة أخرى، فيقضي اليوم تلو اليوم، والشهر مع الشهر، والسنة بعد السنة، وقد أدى مهمته بصورتها الوظيفية المهنية البحتة، دون أي أبعاد ثقافية واجتماعية.

لذلك يستغرب الواحد منهم حين يسمع منّي ـ أو من غيري ـ أن في هذا المجتمع النفطي عوائل فقيرة ومحتاجة، أو تعاني العوز والضعف من هذه الناحية، وإذا ما سمع شيئا من هذا القبيل فلا يتواني في وصف القائل ـ إذا كان سعوديا ـ بأنه من منكري النعمة، وإنه لا يشكر الله على ما أنعم، ولدى عدد من هؤلاء انطباع بأن السعوديين ليسوا أهل عمل ونشاط، خلقوا لـ "الدلاعة" والترف، وهم ليسوا منتجين، وليس لديهم أي استعداد لذلك، فهم أهل بادية لا يعرفون القراءة والكتابة، نزلت عليهم الثروة النفطية فجأة فصارت لهم قيمة بين الشعوب والأمم، وإذا ما جردتهم من هذه الصفة لن تجد فيهم سوى الهمج الرعاع.

لكن هذه الصورة تبدو مغايرة عن التي رأيتها، ووقفت عليها جرّاء تداخلي مع أبناء هذا المجتمع، وتفاعلي معهم، فما أراه مختلفا عن هذه النظرة بشكل كامل، إذ أرى أن هذا المجتمع يحمل في ذاته روحا عالية، وقدرة على الانتاج، والعمل على محاكاة التطور والنمو، ويملك قابلية لأن يكون مثل غيره وأفضل، وفيهم المتعلم والجاهل، والذكي والمتواضع في ذكائه، والغني والفقير، وما إلى ذلك.

وبحكم علاقتي مع هذا المجتمع تخلّيت عن "نرجسية" الشعب المصري، الذي يرى نفسه الأفضل في كل شيء، هذه النرجسية خاطئة في بعض جوانبها، لأننا إذا كنا سبقنا بعض إخواننا العرب في بعض الجوانب، فربما يأتي زمان ويسبقوننا في مجالات وجوانب أخرى.. هذه النظرة كان يحملها حبيب الشعب الرئيس جمال عبدالناصر، الذي كان يتعامل مع العرب بمسافة واحدة، فالعرب كل العرب كتلة واحدة، وأمة واحدة، ذات رسالة خالدة، وإذا كنّا متفوقين في بعض الجوانب الحياتية، فهذا لا يعني أن نتعالى على إخواننا في العروبة والدين،.. ولعلّي أتذكر في الصدد أن فلاحا من الصعيد جاء للعمل في المملكة، سأله أحد أطفال الحوامي:"أنت مصري؟!"، كنوع من الدعاية البريئة من قبل ذلك الطفل، فرد عليه أخونا الصعيد بكل عنجهية وبدون مناسبة:"غصب عنك وعن بلدك كمان!!" ..هذا الموقف ـ وغيره من المواقف ـ ناجم عن أن بعضنا لم يتداخل مع أبناء هذا المجتمع، الذي يبادل كل من يتعاطى معه بالحب والاحترام، فنحن لم نأت كي نسجن أنفسنا في منازلنا، أو لنتصارع مع أبناء جلدتنا، أو نثبت للعالمين بأننا الأفضل، إنما جئنا لأداء مهمة في هذا الوسط، فعلينا ـ لأجل هذا الغرض ـ أن نتداخل معه ونفهم همومه، كي نستطيع أداء هذه المهمة، وأجدني ـ بناء على ذلك ـ سرت في الطريق الصحيح، واجتنبت الكثير من الأخطاء التي وقع فيها بعض زملائي، سواء العاملين في قطاع التعليم او في قطاعات العمل الأخرى، والذي ولّد انطباعا سلبيا لدى بعض السعوديين من كون المصري متكبرا "شايف حاله".

لست أنا بمفردي من تداخل مع الناس، بل حتى زوجتي وأولادي، الذين باتوا جزءا من هذا النسيج الاجتماعي.. ومن دلائل ذلك أني جلست مع إبني الأصغر (عصام) اسأله عن أصدقائه من أهل الحوامي، وماذا يلعبون، فأخذ يشرح لي العديد من الألعاب أثارت استغرابي حقا، من جهة التنوع في هذه الألعاب أولا، ومن جهة تفاعل إبني بسرعة مع من هم في سنه وعمره، والذي بلغ أنه يعرف جميع الألعاب التي يزاولها الأطفال والشباب، فراح يشرح لي

أسماء تلك الألعاب حينما سألته:"ماذا تلعب مع الأولاد؟" فقال لي :" نلعب الوصلي، الفاي فايوه، الطير، التيلة، دحجوه، كنيس، الدوّام، المخطّة، الشراع العود، الصبة".. وأحيانا يلعبون كرة القدم، وحين سألته عن مكان اللعب، فقال:"لكل لعبة موقعها".

ثم مضى يشرح لي كيفية أداء هذه الألعاب، فكل لعبة تعتمد على مهارة معينة، وتتم في وقت معين، وإن كانت جميعها تعتمد على الجهد البدني المتوافق مع الجهد الذهني، بالتالي فكل ألعاب أهل الحوامي هي بدنية تحقق المتعة والصحة الجسمانية للأطفال والشباب.. أما لعبة "الوصلي" فهي لعبة تتم بين فريقين ـ كما قال لي الولد عصام ـ تجري بينهما القرعة فالذي يكسب هذه القرعة يدخل في دائرة يتم رسمها على الأرض، فيأتي إلى تلك الدائرة واحد من أفراد الفريق ولديه "عصوان" ـ مثنى عصا ـ الأولى طويلة (نصف متر تقريبا)، والثانية صغيرة (15 سنتمترا تقريبا)، فيقوم بضرب العصا الصغيرة بالكبيرة بصورة طولية تنطلق إلى الأمام على أعضاء الفريق الثاني، فأما أن يمسكوا تلك العصا الصغيرة قبل ان تسقط على الأرض، فيخرج الضارب ليأتي غيره يواصل العملية، أو تعاد الى الدائرة بعد سقوطها على الأرض، فإن أعيدت واستقرت في الدائرة خرج الضارب أيضا ليأتي غيره، وإذا لم تستقر، واستطاع ضربها بالعصا مرة أخرى فعليه أن يقوم بحساب المسافة بالعصا الكبيرة ثم يواصل عمله في ضرب العصا وإرسالها باتجاه الخصم، وإذا بلغ الحساب الى المائة، يتم قذف العصا ثلاث ضربات لكل عضو من أعضاء الفريق الأول، بعدها يقوم الفريق الآخر بالانطلاق ركضا من تلك المسافة وهو يقول:"وصلي.. وصلي" بنفس واحد، فإذا انقطع نفسه يقوم شخص آخر من الفريق ليواصل حتى يتم الدخول إلى الدائرة ليقوم بالدور الذي قام به الفريق الأول، وفي حال لم يستطع الفريق قطع المسافة بالنفس الواحد، تعاد الكرّة عليه، فيكون خارج الدائرة، ليستقبل العصا الصغيرة وعليه ردّها،

وأما إذا وصل إلى الدائرة فيقوم بدور الرامي.. إنها لعبة تنطوي على منافسة، إذ يمكن للفريق الآخر أن ينهي حظوظ منافسه، ويمكنه أن يبقى في الطرف المتلقي للضربات.

لقد استمعت إلى إبني وهو يشرح تلك اللعبة، وكم أنا مستغرب من ذلك، ولأني لم أشأ التفصيل فيها، لأسأله عن اللعبة الثانية فقال لي :

ـ الفاي فايوه

فسألته:

ـ اسم غريب، هل تعرف معناه

ـ لا أعرف، لكني أعرف اللعبة كيف تكون؟

ـ اشرحها يا بطل

فأخذ يشرح لي هذه اللعبة التي لا تقل غرابة عن سابقتها، وقال لي أنها لعبة طريفة، تحتاج إلى كثير من الجري، وهي عبارة عن بيوت صغيرة ترسم على الأرض على شكل مستطيلات، وهناك ثلاثة حواجز تابعة لتلك البيوت، فيأتي الأطفال ركضا وكل واحد يأخذ له بيتا، وصاحب أول بيت يقوم برمي شيء يطلق عليه "شير" وهو في الغالب قطعة خشب أو قطعة بلاط صغيرة، فإذا وقعت في بيت أحدهم يقوم باللحاق بالبقية فمن يمسكه ويلمس رأسه يكون معه في عملية اصطياد البقية، فلا ينجو الواحد إلا إذا وقف عند أحد الحواجز، التي تكون مكان أمان للاعب من الاصطياد، فإذا مسك الحاجز لا يحق للصائد باصطياده، والحاجز هو عبارة عن عمود كهرباء أو نخلة، أو جدار أحد المنازل، وبهذا يسقط الواحد تلو الآخر، ويزيد عدد الصائدين إلى أن يعرف البطل في آخر اللعبة، التي قد تستمر حتى تغرب الشمس، والبطل يعطى في الدور الثاني "الشير" ليقوم برميه على البيوت (أو المستطيلات الأرضية)، وذلك تقديرا له على نجاحه، كونه آخر واحد من الذين خرجوا من المنازل ولم يتم صيده.

حينها سألت الولد:

ـ وكل يوم يتم مزاولة هذه اللعبة؟

ـ نعم، وهي تشبه إلى حد بعيد لعبة الطير
ـ الطير صار لعبة!!
ـ الطير لعبة جميلة

ثم أخذ يشرح لعبة "الطير" الذي هو بيت واحد وحاجز واحد، لكن التنافس يتم بين فريقين، فالأول يبقى في البيت فيخرج منه لاعب، أما أن يقف في الحاجز أو يرجع الى البيت أو يخرج من المنافسة، إذا صاده الفريق الخصم، يقوم لاعب آخر، وهكذا تستمر المنافسة بين الفريقين، احدهما في المنزل (مربع رسم على الارض)، وآخر في الخارج، والصراع يحتدم بين الطرفين، فإذا الفريق الذي في المنزل انتهى بالصيد ولم يعد آخر واحد إلى المنزل فعليه أن يقوم بعملية الصيد، وأما أذا استطاع ذلك فإن الكرّة تعود على الفريق الثاني، ليقوم بالدور الذي فشل في تجاوزه.

ثم مضى يشرح لي أسماء ألعاب غريبة عجيبة، طلبت منه التوقف عن الحديث عنها، إذ ثبت لي أن علاقة إبني مع أطفال الحوامي قوية إلى درجة غير طبيعية، فهو بات يلعب معهم كل ألعابهم، ويعيش معهم شتى تفاصيل حياتهم اليومية، وهذا بحد ذاته يجعل منه شخصا سويا، ويبعث على الارتياح لدي، كوني أشعر بأني بين أهلي وأصدقائي وجيراني، تماما مثلما لو كنت في مصر بلا فرق، وحينما سألته عن كرة القدم قال لي :"أنهم يلعبونها، وهناك كلام كثير حولها، لكني لا أحب هذه اللعبة ولا أميل لها، لما تحمله من مشاكل، وما تنطوي عليه من أوضاع لا أحبها".

وحينما سألته عن طبيعة تلك المشاكل قال لي بأن كرة القدم لعبة خطيرة وعنيفة، هو لا يحبّها ولا يحب من يلعبها، فأرشدني إلى اخيه (حسام) الذي يتابع احداث كرة القدم ويزاولها بشكل مستمر .

لقد توقفت كثيرا امام الألعاب التي يزاولها هؤلاء، فوجدت أن أهل الحوامي في صراع مع الحياة، وفي تنافس حاد للبحث عن الأفضل، حتى في ألعابهم تجد المنافسة والحماس، فهي تعتمد على

الكفاءة الذهنية والقدرة البدنية، فالضعيف لا يتفاعل مع هذه الألعاب، ولا يتقنها.. ومن الملاحظ ان طبيعة التربية في الحوامي تنمّي حالة المزاحمة والبحث عن الأفضل، فألعابهم ليست تسلية وحسب، بل تنطوي على روح المغامرة والبحث عن التفوق، وتنمّي لدى صاحبها الروح الاجتماعية كونها ألعابا جماعية لا يلعبها أحد بمفرده، وتتم في الهواء الطلق أو في البساتين، وبذلك يتنفس الطفل الهواء النقي، ويمارس المجهود البدني الذي يدعم عضلاته بمزيد من القوة، لذلك فليس بمستغرب أن يقبل الواحد من هؤلاء على الألعاب ذات القوة الجسمانية لمجرد أن يكبر، أو يتوجه نحو الأعمال الشاقة في الغوص والزراعة أو الصيد أو البناء، وبعد أن فتحت شركة النفط أبوابها كان عدد كبير منهم قد التحقوا بها.. ولأن التربية تقدس العقل والذكاء والجهد والعناء تجد ان هؤلاء ـ رغم بروز الجانب البدني ـ أذكياء في الجانب النظري، وليسوا ضعيفي المستوى في الدراسة وطلب العلم والتحصيل.

وكما أن أولادي باتوا منسجمين مع الوضع الاجتماعي، وصارت لهم علاقاتهم مع أهل الحوامي، فإن زوجتي هي الأخرى صارت تلتقى بعدد من السيدات والنساء في الحوامي، وصارت ننقل العديد من حكاياتهن وقصصهن وعاداتهن، ولعل أغرب طلب وجه لها من عدد من السيدات هي أن تقدم لهن شرحا مفصّلا حول كيفية إعداد الملوخية بالفراخ (الدجاج)، وكيفية إعداد الفول و والكشري، وفي المقابل تعلّمت منهن عددا من الوجبات المحلية، مثل كبسة الأرز، والعصيد، والهريس، التي بت آكلها بين فترة وأخرى، فقد وجدت أن بعض الوجبات المصرية موجودة لدى أهالي الحوامي مثل الرز باللبن، وهي الرزالذي يطبخ بالحليب بدلا الماء، ويضاف له السكر بلاد من الملح، وكذلك باقي المحاشي باختلاف أسمائها، فضلا عن الطعمية التي نقوم بإعدادها بالفول، وهم هنا يصنع بالحمص.

ومن عمق علاقة زوجتي مع أهالي الحوامي أنهن يأتين ببناتهن لها كي يأخذن دروسا خصوصية كانت تقدمها لهن مجانا،

كما يحرص هؤلاء السيدات على حضورها في مناسباتهن السعيدة والحزينة، وكان هذا الأمر قد هوّن علي أمر الغربة والابتعاد عن الوطن، إذ شعرنا ـ أنا وأولادي وزوجتي ـ بأننا بين أهلنا، نأكل ما يأكلون ونلبس مثل ما يلبسون، فقد تخلّيت عن اللباس المتعارف عليه في المدن المصرية وهو القميص والبنطلون، فصرت البس الثوب (الدشداشة) وفق النمط الخليجي، السعودي بوجه الخصوص، كما ان زوجتي باتت تلبس العباءة على الطريقة السعودية والحال نفسه مع الأولاد، الذين باتوا يخرجون مع أبناء الحوامي في الرحلات ويشاركونهم في ألعابهم ومناسباتهم اليومية.

ورغم أن مهمتنا هي التدريس بمقابل مادي، إلا إننا شعرنا بأن ثمة مسؤولية أكبر من ذلك، وكنت أشعر بأن المطلوب منّي أن ابذل جهدا في التدريس ثلاثة اضعاف ما أبذله في مصر، بحكم أن ما أتقاضاه مقابل هذه المهمة هي ثلاثة أضعاف ما اتقاضاه في مصر، وزاد من هذه المسؤولية إني وجدت في أهالي تاروت، وتحديدا أبناء الحوامي، أنهم يستحقون المزيد من التقدير، إذ لم يتم التعامل معنا على أننا أجانب، أو من بلاد أخرى، أو غرباء عن هذا الوطن، والذي كنا نشعر ـ بحق ـ إننا جزء منه، والسعودية مثل مصر، ومصر مثل السعودية.

إنها حياة اجتماعية تتقوم بالروابط والعلاقات،

النجم والصواريخ والغزال

ذات يوم دعاني أحد الطلاب وهو من شباب الحوامي أيضا لحضور مباراة في كرة القدم بين فريقين من الفرق الشعبية، أو ما يطلق عليها فرق الحواري، وقد وصفها بأنها مباراة حماسية لا تقل مستوى عن مباراة الأهلي والزمالك، والنصر والهلال، وحيث إني لم أكن على دراية أو معرفة بطبيعة المنافسات الرياضية في الحارة قلت له:

ـ إلى هذا الحد المباراة قوية وحماسية؟

فقال:

ـ نعم، وفوق ما تتصور

ـ ولكن الذي أعرفه أن الحوامي ليس بها أندية، ففي جزيرة تاروت يوجد ثلاثة أندية (النور بسنابس، الجزيرة بدارين، الهدى بتاروت) فهل هذه المباراة بين إثنين من هذه الأندية، وتبعا للمنافسة فسوف تكون حماسية؟

ـ لا يا استاذ، المباراة ليست من مباريات الأندية، وإنما هي بين فريقين متنافسين في الحارة، وتشهد حضورا جماهيريا، وحماسا وأداء رياضيا قد لا تجده في مباراة أخرى.

ـ ومن يكون هذان الفريقان؟

ـ النجم والصواريخ!

ثم مضى يشرح لي حالة المنافسة بين الفريقين قائلا بأن الفريقين في حارتنا، عدا أن الأول يلعب في الفسيل على الطريق المؤدي الى المدرسة، والثاني يلعب في منطقة يطلق عليها (زيزا) تقع على الطريق الزراعي الذي سرت عليه برفقة "أبومهدي" في أول رحلة سياحية لي في جزيرة تاروت، فهناك ملعب تحيطه النخيل من أربع جهات، ورغم أن الجميع أصدقاء وأقارب إلا أنه ما بين فترة وأخرى يلتقيان في مباراة تعكس حالة الحماس بينهما.. وأحيانا تتم المنافسة على بعض الحلويات والمشروبات الغازية، وتتم

الاستعانة ببعض لاعبي الخبرة للمشاركة في هذه المباراة، والتي ستسجل في التاريخ.

ولم يكن مني تجاه هذا العرض والإلحاح من قبل الطالب الذي كان يعرف حرصي الشديد على الحضور في المناسبات الاجتماعية إلا أن وافقت على طلبه، وعرفت الموعد بأنه سوف يكون يوم الجمعة في الساعة التاسعة صباحا، وكان هذا الموعد غريبا للغاية، فلم أشهد في حياتي مباراة كرة قدم تقام في الصباح، فما أعرفه أن المباريات تقام في العصر أو في الليل، ولكن هذا الذي حصل، فقد حضرت هذه المباراة العتيدة التي أقيمت على ملعب نادي الهدى المجاور للمدرسة التي أعمل بها مباشرة، وكما قال ذلك الطالب فقد كانت مباراة حماسية للغاية، والسرعة في نقل الكرة غير معقولة بين الطرفين، وكان كل فريق يسعى إلى الفوز في هذه المباراة، وكأن هذا الفوز يعادل تحقيق بطولة لوحدها، إنها مباشرة قوية قريبة الشبه بمباريات الفرق الكبيرة.

وما لفت نظري في هذه المباراة ان جميع اللاعبين ـ الا ما ندر ـ كانوا حفاة، فلا أحد من الـ 22 لاعبا قد لبس حذاء رياضيا، فضلا عن أن أجزاء من أرضية الملعب يابسة أشبه بالخرسانة المسلحة، بحيث لو سقط أي لاعب فإن جلده سوف يتسلخ وربما كسرت بعض عظامه، ولكن مع ذلك رأيت اللاعبين يركضون بسرعة فائقة، لم يعقهم هذا العائق، ومن يسقط يقوم بسرعة، وكأنه قد سقط على قطعة من العشب.

وقد جاء فريق النجم ـ حسب وصف لي ذلك الطالب ـ بالقمصان الخضراء، بينما فريق الصواريخ بالقمصان الزرقاء، وما عدا ذلك فلا يوجد أي التزام بالزي الرياضي، فتجد جميع الألوان ظاهرة على "شورتات" اللاعبين، ففيها الأزرق والأحمر والأخضر والأسود والأبيض، بل أن بعضها لا تنتمي إلى الملابس الرياضية.. كما أن حكم المباراة شخص جاء بلباس عادي، ولم يكن رياضيا،

فهو شخص حافي القدمين، يلبس ثوبا بيضاء قام بالتحزم بها، ولديه صافرة هي الأخرى مختلفة عن صافرات ملاعب كرة القدم، وبكل ذلك لا تبدو على هذا الحكم أية ملامح أو دلالات على أنه حكم رياضي يعرف شيئا من قوانين كرة القدم، ولكن اتفق الطرفان عليه فكان حكما، وأدار المباراة بصورة إيجابية رغم الحماس الكبير بين الفريقين، والحساسية السائدة بينهما، فجاءت مباراة جميلة أعجبت كل من حضر.

ورغم أن فريق النجم كان أكثر أناقة وجمالا في العطاء داخل الملعب، بحكم العناصر الفنية التي يضمها هذا الفريق، إلا أن النتيجة جاء مغايرة لهذا المستوى، إذ انتهت بفوز الصواريخ بخمسة أهداف مقابل لا شيء، وتمت تلك النتيجة وسط ذهول الجميع، بمن فيهم عناصر فريق النجم، الذين جاؤوا المباراة وهم يعتقدون أن نتيجة المباراة في جبوبهم، وان الفريق الآخر سوف يخرج بـ "دستة" أهداف، الا أن الاهداف السريعة والمفاجئة جعلت النتيجة لصالح الفريق الخصم، ذلك وفق تحليل من التقيتهم في اليوم الثاني لتلك المباراة، التي صارت تاريخية لم ينسها اللاعبون من الطرفين، وصاروا يتحدثون عنها في المجالس، ورغم أن الحالة الحميمية بين اللاعبين كانت حاضرة بعد نهاية المباراة الا أن الحزن والأسى اصاب لاعبي النجم بشكل غريب جدا، لاحظته في عيونهم.

وبحكم الفضول الذي كنت أحمله، وحب الرياضة، فضلا عن حرصي على معرفة أدق التفاصيل عن الحياة الاجتماعية في الوسط الذي أعيش فيه، وقفت مع رجل يدعى "عبد الرسول" وينادونه دائما "ابو أيمن"، وقد تجاوز عمره حينذاك العشرين عاما، مقابل أن معظم اللاعبين في الملعب دون ذلك بكثير، فرحت اسأله عن سر هذه المباراة فقال بأن هذه المباراة حماسية، فالفريقان لا يلتقيان إلا قليلا، ولذلك لاحظنا الحرص من الطرفين على تحقيق النتيجة، لأن الفوز سوف يسجل في التاريخ، لأن المنافسة قوية وكبيرة بين الفريقين، وهما من حارة واحدة.

هنا ألتفت إليه متسائلا عن عمر هذين الفريقين، فقال لي بأن عمرهما لم يتخط الثلاث سنوات، ويوجد بينهما فريق ثالث يدعى فريق الغزال، فمنطقتنا مقسمة رياضيا الى ثلاث مناطق فالنجم يلعب في "الفسيل"، والصواريخ في "زيزا" والغزال في "الصدري"، إشارة الى بستان من بساتين الحارة، وكل فريق يتخذ المكان الملائم له، والمناطق التي يتم اللعب بها عبارة عن بساتين بتم تنظيم ساحة صغيرة للعب فيها، وإن المباريات تتم على ملعب النادي في الغالب، وذلك في الصباح الباكر، لأن الملعب في الفترة المسائية يكون مشغولا بتمارين النادي ومبارياته، ويحدث أن تتم المباريات في مناطق أخرى، مثل المحسينيات وهي منطقة قريبة من البحر، أو الربيعية، او سنابس.

هنا توقفت قليلا لأقول له:

ـ يبدو إني أمام قصة جميلة، تحكي التاريخ الرياضي لهذه المنطقة، أرجو أن توضح لي مفصلا قصة نشوء هذه الفرق الثلاثة.

فردّ علي:

ـ القصة إن عشق كرة القدم في جزيرة تاروت قديم، وكانت تضم مجموعة فرق، آخرها وأشهرها فريقا (النصر والنسر)، وقد كانا ناديين بكل معنى الكلمة، فلكل منهما مقر خاص، وكانت بينهما منافسة حادة، انتهت باتحادهما وبروز نادي الهدى بتاروت الذي أتم كافة شروط ومتطلبات الانضمام للرئاسة العامة لرعاية الشباب بعد هذا الاندماج، وكان ثالث الأندية في جزيرة تاروت، حيث لم يعد نشاطه مقتصرا على لعبة كرة القدم فقط، أضيفت له جملة من الألعاب الفردية والجماعية، وذلك وفق متطلبات الرئاسة للأندية الرسمية، وبذلك انتهت أكبر منافسة بين فريقين شعبيين في تاروت (البلدة وليس الجزيرة)، مما أتاح فرصة لبروز عدد من الفرق الشعبية الأخرى، ما يهمنا هنا هو فريق واحد يدعى "الغزال" الذي كان مسيطرا على منطقة جنوب تاروت، والذي ما أن انتهى حتى

ظهرت على أنقاضه عدة فريق كان نصيب الحوامي فريقان هما "البدر والمدافع"، وقد شهدا منافسة حادة استمرت لعدة سنوات، لمن تتوقف إلا بعد انتهاء الفريقين وخروجهما من الساحة الرياضية، والسبب في ذلك التحاق بعض اللاعبين بالنادي، أو انشغالهم بالأعمال الخاصة، أو ترك ممارسة الهواية بصورة نهائية، وانتهى الفريقان ليأتي جيل جديد على أنقاضهما بأسماء مختلفة، جاءت هذه المرة بثلاثة فرق في حارتنا هي (الغزال والنجم والصواريخ)، طبعا هذا الغزال يختلف عن الغزال الأول، واستمرت المنافسة بين الفرق الثلاثة لمدة زمنية وكانت الغلبة دائما للنجم، الذي كان الأبرز والأكثر تنظيما، فضلا عن أن لاعبيه يحبّون كرة القدم بصورة غير عادية، لكنه مع ذلك يتعرض لإحراج من الفريقين الآخرين، فلا يفوز عليهما بسهولة، وكما هزمه الصواريخ تعرض لهزيمة من الغزال، وهو أيضا هزم الفريقين لكن بصعوبة.. هذه المنافسة لم تبق، ولم تدم طويلا، إذ انسحب الغزال من المنافسة لانشغال القائمين عليه بأعمالهم وشؤونهم الخاصة، ليترك المنافسة قائمة بين الفريقين الآخرين، الذين لعبا هذه المباراة، التي تعد الثالثة في غضون أربع سنوات، تعادلا في واحدة، وانهزم كل منهما في واحدة من الإثنتين الباقيتين.

ـ وما مصير الفريقين؟ هل سيبقيان على هذا الحال؟

ـ الخطوة القائمة هي اتحاد الفريقين، لأنهما لن يكونا أفضل من الفرق التي سبقتهما، وإذا لم يتحدا فسوف يذوبان مثل الملح في الماء الساخن.

انتهى الحوار مع "ابو أيمن"، ولم تمر سوى بضعة أشهر على هذا الكلام، وبعد تلك المباراة التي صارت آخر لقاءات الفريقين، اذا بهما قد ألغيا إسميهما واندمجا في فريق واحد، أطلقوا عليه إسم "الحوامي"، وكان ذلك ــ كما قيل لي فيما بعد ـ أول مرة يطلق هذا الاسم على الحارة كلها، التي تتألف من عدة مناطق، ولها أسماء مختلفة، هذه الأسماء ذابت في الاسم الجديد، وصار "ابو ايمن" نفسه قائد الفريق الموحد، وهو الذي قاد فكرة الاتحاد، فصار جيل الشباب

الذي جاء فيما بعد لا يعرف أسماء أجزاء الحوامي، التي كانت عبارة عن بساتين تحوّلت إلى أحياء سميّت بأسمائها، وبفعل إنشاء الفريق باتت الأجيال جميعها لا تعرف سوى "الحوامي" فقط وفقط.. وبذلك توقفت حالة التفريخ للفرق الرياضية التي لم يكن يخلو وقت منها، فلم تعد هناك قابلية لأي خطوة من هذا القبيل، فمن يخرج بفريق جديد يصطدم بفريق الحارة الأكبر والأوسع.. ذلك ما أكده لي أبو ايمن نفسه، الذي يؤكد بأنه لم يجد صعوبة في إحراز الدمج، ولم الشمل بين الفريقين، لأن الجميع أخوة وأصدقاء وأقارب.

وما زاد إعجابي بهذه الخطوة أن جيل الشباب ـ وبكل عفوية ـ ارتأى أن يجتمع ويتعاون ليشكل كيانا أفضل من الكيانات الأصغر، خاصة وأن الفريق بات يملك ملعبا كبيرا تم إنشاؤه على انقاض الملاعب الصغيرة المختلفة، فصار الفريق كيانا اجتماعيا واضحا، أسسه أناس معظمهم لم يتخط العشرين عاما من عمره، وقد استمر الفريق لسنوات طويلة، حتى بعد مغادرتي السعودية وعودتي الى مصر، وحتى بعد اتصالي ببعض الأصدقاء قالوا لي بأن الفريق موجود بالإسم نفسه، وقد تعاقبت على إدارته أجيال وأجيال، ولم يتمكن أحد من إنشاء فريق منافس للفريق في الحارة، فقد بات رقما من الأرقام الرياضية في جزيرة تاروت.

إن الفريق الرياضي هو بمثابة نقلة نوعية من التشتت الى التوحد، من المنافسة الى التعاون، خاصة وإن الفرق الشعبية ليست مجرد فرق رياضية، فهي كيانات اجتماعية ذات علاقات أوسع من الرياضة التي هي منطلق لآفاق أوسع.

ذلك جانب آخر، وصورة ـ من صور عديدة ـ للتآلف الاجتماعي في حارة الحوامي .

مشهد غريب

في إحدى أيّام الشتاء، حيث البرد القارس، والنهار القصير، وفي إجازة عيدالفطر المبارك، وفي وقت قبل أذان المغرب بساعة أو ساعتين، خرجت حارة الحوامي عن بكرة أبيها، خرج الكبار والصغار، الرجال والنساء والأطفال، الكل خرج بدون شعور، وسط دهشة لافتة، ووضع غير طبيعي.

لقد شهدت المنظر الذي دفع العديد من الناس إلى الخروج، فخرجت عائلة أعقبتها عائلة أخرى، وخرج طفل وأخبر الأطفال الآخرين، وامرأة وقفت أمام بات بيتها مندهشة، فنقلت ما لديها من دهشة إلى غيرها، إلى أن خرج الجميع، فالكل واقف يراقب المشهد، ويلحظ الحدث بتفاصيله، فالجميع جاؤوا يتفرجون على منظر يحدث لأول مرة في حارة الحوامي.. ذلك أن ثلاثة من رجال الشرطة جاؤوا الحارة وهم يجرّون اثنين من المواطنين، يبدو ذلك عليهما من لبسهما، وهما ليسا من حارة الحوامي، ولا أحد يعلم من أين، لقد جيء بهم وقد تم ربط أيديهما بشماغ أحمر، يبدو أنه لأحدهما، فالناس في البرد ومن أجل طلب الدفء تلبس الشماغ الأحمر، بعكس الأوقات الأخرى، فالعديد من الناس ـ خصوصا جيل الشباب ـ لا يلبسون الغترة أو الشماغ، بعكس كبار السن فليبسون الغترة البيضاء في الصيف والحمراء في الشتاء.. فقد تم اقتياد هذين الرجلين في وضع لافت للنظر، ويبعث على المزيد من الغرابة والدهشة، وقد مرّوا بهم على الأحياء السكنية، وكأنما الشرطة تريد الناس أن تتفرج على هذين الرجلين وهما في وضع استسلامي وكل منهما قد أنكس رأسه من الخجل، بسبب أعين الناس، وإن كانوا ـ وللحق ـ غير شامتين بقدر ما هم في وضع المستغرب من الحدث، فهم غير متعوّدين على حضور رجال الأمن أو الشرطة، ذاك لأن المشكلات اليومية لم تصل إلى حد وصولها إلى الجهات الأمنية، ومن الأصل لا يوجد مركز شرطة في تاروت كلها في ذلك الوقت، وأي قضية يتم تحويلها إلى القطيف على بعد أكثر من 5 كيلومترات من تاروت، لذا جاء الحدث موضع دهشة وغرابة، وكان باعثا لأن تخرج الناس من بيوتها ويتم تداول الخبر.

لقد خرجت مع من خرج، ووقفت على قارعة الطريق مثلي مثل غيرى، وذلك قرب منزل الحاج حسن الفارس، إذ لذنا جميعا باتجاه الجدار، والشرطي يحمل عصا بيده يبعد كل من يقترب منه، ولا يسمح لأي أحد بأن يسأله عن شيء، بل أن أحدا لم يكن يجرأ بأن يسأله، أو يسأل زميله الآخرين، فرجل الأمن ذو هيبة اكتسبها من هيبة الدولة والحكومة.

لقد مرّوا بالرجلين بكافة الأحياء السكنية، بعد أن تم اقتيادهما من أحد المزارع بين الربيعية وتاروت، ولا أحد يعرف شيئا عن الجرم الذي ارتكبه هذان الرجلان، والبعض ذهب إلى أنهما كان يشربان الخمر، لكن المنظر لا يوحي بذلك، فالرجلان في وضع سليم من الناحية العقلية، ويسيران مع الشرطي بكل هدوء، ولا تبدو عليهما أي علامة للسكر، كما ذهب البعض إلى أنهما ربما سرقا شيئا من مكان ما، أو كانا مطلوبين على ذمة قضية جنائية ما وتم اصطيادهما، لا أحد يعرف، ولا أحد يدري، والكل يستفسر بينه وبين نفسه، ولا من مجيب.

والصورة نفسها تكررت ـ بعد بضعة أيام من الحادثة ـ حينما تم إلقاء القبض على واحد من أهالي الحارة، جاءت به الشرطة بالصيغة نفسها، وأمام مرأى ومسمع الكل، وفي وقت الذروة في الساعة الرابعة عصرا، لقد جاءت به مشيا على الأقدام، يده في يد شرطي ذهب به إلى منزله، وهو مستسلم ووجهه يتصبب عرقا من الخجل، رغم ان الوقت كان باردا، لقد جيء به من أجل أن يأتي ببطاقته الشخصية التي تسمى بـ "حفيظة النفوس" واصطلح الناس عليها بـ "التابعية".

لقد جرت الحادثتان في وقت متقارب، ولا أحد يجزم بوجود علاقة بينهما، بل لم يكن أحد يتوقع ذلك، وبالنسبة لي لم أشأ الدخول في تفاصيل الحادثتين، مع أحد من أهالي الحوامي، مراعاة لشعورهم، خاصة وأن أحد الذين تم إلقاء القبض عليهم من أهل

الحارة المعروفين، لكني ومن خلال اللقاءات مع الناس، واستماعي لأحاديثهم، عرفت أن الشرطة هجمت على خمسة اشخاص في إحدى المزارع البعيدة عن حارة الحوامي، استطاعت ان تمسك باثنين منهم فقط (وهما اللذان تم جرّهما مربقين بالشماغ)، وهما بدورهما اعترفا بالجنحة التي ارتكبوها، واعترفا أيضا بأسماء الثلاثة الذين هربوا اثناء عملية المداهمة التي تمت، وبعد أيّام تم إلقاء القبض على الثلاثة الباقين من منازلهم أو من مواقع عملهم، وعرفت من خلال الناس أن التهمة هي لعب القمار، حيث قام هؤلاء بممارسة هذه اللعبة في أحد المزارع، التي كانت مأوى لمثل هذه الأعمال وغيرها من الأعمال الممنوعة عرفا وقانونا.

لقد أثارت هذه القصة الكثير من الأسئلة في ذهني، لم أشأ أبدي بها لأحد، حتى لا يفهمنى أحد بشكل خاطئ، ولا أدخل في متاهة مع أحد، لأني ـ ومهما كنت ـ فأنا غريب على هؤلاء الناس، لكني تجرأت وسألت أحد المدرسين السعوديين معنا عن تفسير هذا الخروج من الناس، ولم أدخل في تفاصيل الجريمة المذكورة، فاكتفى في رده عليّ بالقول:"إن الوضع غريب، ومجيء الشرطة عندنا، لا بد وأن يؤدي لمثل هذا الوضع، فهو غريب بالفعل".

ـ وما مصدر الغرابة؟

سألته فأجاب:

ـ الشرطة حينما تأتي فإن الوضع غير طبيعي، فلسنا متعوّدين على وجود شرطة، بل أن الشرطي لا يأتي المنطقة الا في الشديد القوي.

ـ وهؤلاء ما جرمهم؟

ـ لعب الميسر والعياذ بالله!!

ـ ولماذا يلعبون في المزرعة، ألم يكن هناك مجال لأن يلعبوا في أحد المنازل.

ـ لا أحد يسمح بذلك، والناس لا تقبل، بل إن هذه العملية سوف تكون سمعة سيئة لهؤلاء الأشخاص، سوف يتم تذكيرهم بها، هم وأولادهم.. وحتى لو كانت العملية في المنزل فإن مجرد إخبارية

تصل الى الدولة بأن هناك أشخاصا يلعبون الميسر يمكن مداهمة المنازل والقبض عليهم، ولو تبين أنهم أبرياء يفرج عنهم، ولكن لا أحد سوف يصدّق أنهم أبرياء، ما داموا قد اقتيدوا للسجن، والشرطة مرّت بهم في الحارات.

تلك الحادثة كشفت لي جانبا مضيئا لدى هؤلاء الناس، فالمجتمع يرفض السلوك السيء، ومن يرغب في الانحراف كان يذهب بعيدا عن الناس، ولم يكن هناك مأوى لمثل هذه الأفعال غير المزارع، أما المنازل فقد كانت بعيدة عن كل هذه الأفعال، فقلّما سمعنا أن جريمة من هذا القبيل جرت في أحد المنازل، فضلا عن أن مداهمة لأحد المنازل لم أسمع بها.

وقد نقلت هذه الحادثة الى ذاكرتي حادثة أخرى جرت ـ قبل تلك الحادثة بأسابيع قليلة ـ وشهدت بعض فصولها، وهي أن شخصا ما تم العثور عليه في أحد المزارع وهو في حالة غيبوبة، وقد قذف كل ما في أحشائه من طعام وشراب، وقد بدا أنه قد أكل كمية ليست قليلة من الجمبري (الروبيان) وقد تعاطى شيئا من الخمر، وقد اجتمع الناس ـ وأنا منهم ـ حول الرجل الملقى على الأرض، ولا أحد يعرف كيف يتصرف، فمن الواضح أنه قريب عهد بهذا الفعل، وبينما نحن جميعا مترددون والجمع يزداد شيئا فشيئا، إذا بشخص حكيم طلب من إثنين من الحضور بحمل الرجل، ونقله إلى المنزل بدلا من التشهير والفضيحة، و إن كانت الفضيحة باتت على كل لسان، وتمت العملية بسلام، ولم يأت أي من رجال الشرطة.. والعجيب في الأمر أن الرجل كان ملقى على الأرض وهو يغوص في عرقه وقيئه ووساخته، والناس وقوف حيارى لايدرون ماذا يعملون، مع أن الجميع يعلم أين منزله وأين يسكن، لكن أحدا لم يملك قدرة القرار، لولا ذلك الرجل الحكيم.

وذات مرة أيضا، وفي حارة الحوامي أيضا، وعلى أحد أزقتها رأينا النساء قد خرجن من البيوت مع أطفالهن، وحشد كبير من

الفتيات والفتيان، في صورة لم أرها في الحارة، وكنت أظن أن جريمة أخرى، أو أن شخصا ما سوف يسافر إلى العراق او إيران، أو أن الشرطة قد ألقت القبض على أحد ما مارس فعلا مشينا، إلا أن المفاجأة التي جعلتني في حيرة هي أن الوضع لا جريمة ولا شيء من هذا القبيل، وليس هناك شرطة، وإنما كانت ثلاث نساء أتين من البحرين لزيارة أسرة قريبة لهن من الحوامي، وكنّ سافرات، أي ليس عليهن العباءة والخمار، وإنما بدت كل واحدة ناشرة شعرها، لابسة تنورة قصيرة لم تتخط نصف ساقها، وكان هذا الأمر ليس غريبا على شخص مثلي يرى مثل هذه المناظر يوميا في مصر، لكنها في حارة مثل الحوامي يبدو الأمر غريبا، بل وغريبا جدا، ويعد ذلك من المنكرات، فالناس لم تر مثل هذه المناظر، وحتى التلفاز لم يكن قد جاء إلى الأسر بالكامل، ولم يكن يبث طوال الوقت.

وقد كان هذا الحدث مشهودا في الحارة، تم الحديث عنه لفترة غير قليلة، حتى إنني قلت لأحد زملائي من المدرسين السعوديين :" هذا الأمر عادي جدا"، فردّ علي بأن "هذا الأمر عادي عندكم في مصر، لكنه عندنا يعد من المنكرات، بل من الكبائر"، فوافقته في الرأي، وقلت له بأن الوضع هنا في السعودية أفضل من مصر، والانفتاح والتحرر الأخلاقي ليس سليما، لكن المفاجأة أنه قال لي بأن هناك مبالغة في الأمر، إذ تم سجن أشخاص شوهدوا يتمشون في أحد المزارع، والتهمة غير سليمة وغير صحيحة وهي أنهم يمارسون الفاحشة، ويتعاطون الخمر، لمجرد أن مندوبي الحكومة شاهدوا آثار ومعالم شرب الخمر وممارسة الفاحشة في المكان الذي وجد فيه هؤلاء، فتم سجنهم بجريمة لا علاقة لهم بها، فكانوا أبرياء وصاروا مجرمين، ولم يقبل أحد من الناس بأنهم أبرياء ولا علاقة لهم بذلك.

هنا سألته سؤالا جريئا وطلبت منه العذر مقدما على الجرأة لأقول:

ـ وهل صحيح أن هؤلاء ليسوا على علاقة بهذه الجريمة؟

فلم يملك الرد سوى بالقول:
ـ العلم عند الله
ـ ربما فعلوا وربما لم يفعلوا
ـ صحيح
ـ بالتالي فالقانون، ومكافحة الجريمة، تحمي الناس وتمنع الشيطان.
فتبتسم بسمة صفراء، تحمل معاني عديدة، واسترجع (إنا لله وإنا إليه راجعون) وحوقل (لاحول ولا قوة الا بالله) وقال:
ـ هذه المزارع هي مأوى لكل شر، فيها يعصى الله كثيرا، لو تم حرقها لكنّا بخير
ـ وكيف ومنها ينتج التمر والتين واللوز
ـ لا أقصد المزارع السليمة، وإنما أقصد تلك الغابات التي لا خير فيها ولا منفعة، فهي في الليل للكلاب والعقارب والنمل والقراد والفئران، وفي النهار لأولاد الشيطان.
ـ كيف؟ ما فهمت.. ممكن الشرح بشيء من التفصيل.
ـ الكثير من المزارع بها أوكار يلجأ لها بعض المنحرفين، لممارسة أفعالهم المشينة التي لا يمكن القيام بها في المنازل، مثل شرب الخمر ولعب الميسر، وفعل الفواحش الأخرى مع الأولاد أو مع البنات، أو حتى الإفطار في شهر رمضان لمن لا يريد الصوم.
ـ أعوذ بالله، وصلت المسألة إلى البنات بعد
ـ للأسف نعم، فالجرائم تتم في المزارع، هناك من يلجأ لها كي يستر نفسه من الناس، ولا يستر نفسه من الله، وكل مجرم أو مجرمة تشهد هذه المزارع جرائمهم، ولا نقول الا الله يجير الجميع، اما تذكر ذلك الذي قتل عمه وعمته وزوجته في دارين.
ـ نعم أذكرها، لكني لم أفهم القصة.
ـ ولا أحد فاهمها بالشكل الصحيح، كل ما نعرفه أن شخصا قيل أنه من الجنوب جاء مع أهل زوجته في دارين، الذين أكرموه

واستضافوه، وبسبب خلافات عائلية ـ لا نعلم شيئا عنها ـ قام بقتلهم جميعا، واختفى في أحد المزارع، ودخلت تاروت كلها في جو أمني مضطرب، وتمكنت الدولة من إلقاء القبض عليه في مزرعة "الحليبي" قرب المقبرة، وقاموا باللف به في سيارة الشرطة على كافة حارات تاروت، وما نقول الا "الله يستر علينا جميعا".

ـ الله يستر على الجميع، اتذكر ان نقاط تفتيش كان تتم في كل مكان، هي أول مرة تحصل في تاروت بأكملها، وحسب ما سمعت ان هذا الحدث لأول مرة يجري، فالناس لا تعرف الرصاص ولا المسدسات، لكنهم رأوها بسبب تلك الحادثة.

ـ أزيدك من الشعر بيتا

ـ تفضل

ـ الناس قبل هذه الحادثة ما كانت تعرف الشرطة إلّا إسمها، ولا يرون الشرطة الّا على بوابة المستشفى وهو حارس أمن لا أكثر ولا أقل، لكن الشيطان موجود وشاطر!!

ـ ولكن إذا صارت مشكلة ما، كيف يتم حلّها؟

ـ كانت تحل في المنازل والعوائل، وتدخل كبار القوم، وإذا بلغت المسائل حدّها فإن الشكوى تتوجه الى القطيف، حيث أن الشرطة هناك.

ـ وهل جرت حوادث تم اللجوء فيها إلى الشرطة؟

توقف صاحبي قليلا، ثم راح يتحدث ويعرض بعض القصص التي تم حلّها في المجالس العائلية، وبعضها تم حلّها باللجوء إلى الشرطة، فقال بأن بعض المشاكل تجري بين الأطفال الصغار، أو التي تتم بين الرجال وزوجاتهم، ففي الغالب يتم حلّها وديا، بينما المشكلات التي تمس العرض والشرف، أو التي تنطوي على سفك دم، فإنها تصل إلى الشرطة في القطيف، وذلك قبل أن يفتتحوا مركزا للشرطة في تاروت.

هنا أردت الاستزادة بغرض المعرفة فقلت له:

ـ هل هناك أمثلة، وبدون ذكر أسماء، فالله جل شأنه أمر بالستر.

فردّ على بكلمة "صحيح"، ثم مضى قائلا:

ـ ذات مرة قام أحد الجناة بعملية اغتصاب جنسية بحق طفل، إذ اقتاده إلى أحد المزارع وفعل به ما فعل بصورة متوحشة، هذه المسألة دفعت بأهل هذا المغتصب (الله يستر عليه) بإبلاغ الشرطة التي قامت بدورها بإلقاء القبض عليه المجرم من وسط السوق، وأمام الناس وبقى في السجن لعامين، وتم جلده أمام أعين الناس، وحوادث الاغتصاب التي تتم ونسمع عنها يتم معالجتها بهذه الصيغة، ويحدث أن العديد من العوائل تميل إلى "الستر" انطلاقا من قاعدة "استر ما ستر الله".

ـ لم أفهم مقولة "استر ما ستر الله"

ـ الستر هو إخفاء القصة، فمن يتعرض لفعل من هذا النوع يبقى عارا عليه لفترة طويلة، فالأطفال في الشارع لا يتركونه على حاله، فيتم تذكيره بذلك، بل أن الولد يتم أخذه بجرم أبيه، أو بجرم أخيه، أو بجرم إخته.. فأي قصة تصل إلى الشرطة تعني شيئا من الفضيحة، وبقاء العار، الذي لا ينسى، فالكثير من الناس يفضلون الحلول السرية بدون الفضيحة، وفي هذا المجال أذكر قصة احد الشباب الذين تم التغرير به ومن ثم أخذه إلى أحد المزارع القريبة وفعل به فعل قوم لوط، فأهل هذا الولد ارتأوا معالجة الأمر بصورة مختلفة من أجل سلامة ابنهم نفسيا وجسديا وتمت تغطية المسألة حتى نسيها الكل، ولا أحد يذكرها، فكأنها حادثة لم تحدث.

هنا توجهت له بسؤال كان يعتمل في داخلي:

ـ أراك تتحدث عن الجرائم، وركّزت على الجرائم الأخلاقية، التي حدثت لأشخاص من بين جسنهم، الا توجد جرائم قتل وسرقة ومنكرات أخرى ابتلينا بها؟

ـ لا شك أن هناك جرائم أخرى، أراها كثيرة وعديدة، بعضها أعرفه ويعرفه غيري، وبعضه لا أحد يعرفه، وربما كان ما خفي أعظم مما ظهر، بيد أن علينا بالحديث عن الظواهر، أو الأحداث

التي رأيناها وشهدناها، اما التي لم نرها وسمعنا عنها فلا يحق لنا الحديث حولها.

ـ أراك تتكلم بشيء من الألغاز، وكأنك لا تريد ان توضح لي المسألة، فلست أهدف سوى المعرفة والمساعدة في حل بعض المشكلات، إلا إذا اعتبرتني غريبا عن المجتمع الذي أعيش فيه

ـ لا ابدا، فأنت منّا وفينا، وبلادنا شهدت في السنوات الأخيرة حوادث قتل، وحوادث أخلاقية تبعث على القلق.. بالنسبة للقتل وكما سمعت ورأت قصة ذلك الشخص الذي جاء من الجنوب وقضى على أقاربه واهل زوجته في دارين، هناك قصة قتل أحد أبناء هذه الحارة في ظروف غامضة، فقد عثر عليه مطعونا في مزرعته، ومضت سنوات على تلك الحادثة، ولم نعرف القاتل، بل أن تحقيق الحكومة في هذا الشأن لم يتوصل إلى شيء، وكل ما نعرفه أن الجثة عثر عليها، وعملية القتل تمت بواسطة آلة حادة، ولا أحد ـ الى اليوم ـ يعرف قصة هذا الرجل وقضية قتله.

ـ وهل كان المقتول من أرباب المشاكل؟

ـ لا ليس كذلك، بل على العكس كان يعرف بالصلاح والهدوء، عدا أنه كان قوي البنية، شديد الشكيمة، وهذا حال كافة الذين يتعامون مع النخلة، فالعمل شاق ويتطلب نوعا من القسوة.

ـ ألم تكن لديه مشاكل عائلية مع إخوانه وجيرانه؟

ـ هناك مشاكل، لكنها لم تصل الى حد القتل فلا أحد في دولة ابن سعود يتجرأ بالقتل، لأنه يعرف بان القاتل سوف يقتل مهما تكن الظروف، كما ان المقتول كان على خلاف حاد مع إخوته وكانت تصل النزاعات إلى حد رفع الصوت، والسباب والشتائم، والتلفظ بعبارات بذيئة حادة، وتصل الى حد التضارب بالأيدي، لكن هذا الأمر لم يصل إلى أن أحدا يرفع سكينا أو أي آلة حادة وقتل أخيه.

ـ وكيف تم حل المشكلة؟

ـ تم حلّها بأن توصلت الحكومة إلى تسجيل الجريمة ضد مجهول، فلا أحد يعرف القاتل، ولا أحد يتهم أحدا بهذه الجريمة، والرجل قتل وسوف يكون عقاب قاتله عند من لا يخفى عليه شيء.

بعد ذلك توقف صاحبي، لينقل لي قصة أخرى عن القتل، إذ ذكر بأنه كان مع عدد من أقاربه قصدوا البحرين، التي يذهب الناس لها بالسفن والمراكب وتستغرق الرحلة عدة أيّام في البحر، فكان في طريق عودتهم قد اصطحبهم اثنان، أحدهما من الدمام، والثاني من بقيق، ودار الحديث عن مقولة "بشّر القاتل بالقتل ولو بعد حين"، حينها نطق الشخص القادم من الدمام بقوله:"هذه كذبة لا يمكن تصديقها، فأنا أذكر إني في طريق بقيق دهست شخصا بسيارتي، ولما تأكدت أنه قد مات تركته وهربت، ولا أحد يدري بالمسألة، والآن قد مرّت سنوات عشر على هذه الحادثة، ولا أحد يدري"..هنا ابتسم الحاضرون، وانتقلوا إلى مواضيع أخرى متفرقة، إلى أن وصل الجميع إلى الميناء بالخبر بالسعودية، وما أن نزل الجميع، إذا بالشخص الذي قدم من بقيق وكان هادئا ساكتا طوال الرحلة، يصرخ بأعلى صوته، وهو ممسك بالشخص الآخر وهو يردّد :"الله أكبر.. الله أكبر، لقد ظهر الحق، لقد جاء قاتل أبي" وتوجه به إلى رجال الأمن هناك، وهو ممسك به وبكل قوّة مكررا :"قاتل أبي.. قاتل أبي"، إذ تبيّن أن هذا الشخص جاء مع قاتل ابيه في مركب واحد، وإذا به يسمع اعترافا صريحا بالجريمة التي جرت مع والده قبل عشر سنوات، وبقى صامتا طوال الرحلة ينتظر الوصول الى المرفأ، وما أن وصلنا طلب من رجال الأمن أن يمسكوا بالقاتل، وطلب من الحضور وكانوا أربعة بالشهادة، فالكل قد استمع لاعتراف القاتل وهو يفتخر بأنه ارتكب جريمة ولا أحد يعلم بها، ظانا بأنه قد نجا منها، إذا به يعترف بها أمام صاحب الحق، وأمام أربعة شهود الذين أدلوا بشهادتهم.. هذه الحادثة تخالف قتيل الحوامي الذي لم يعرف قاتله، وربما مات ذلك القاتل ودفن سرّه معه، وربما لم يرد الله أن يكشف سر القاتل على غرار قتيل شارع بقيق، الذي أوعزت له نفسه بغرورها أن يترك ذلك الرجل قتيلا على الشارع،

ثم تأتي النفس ذاتها بأن تتفاخر بالجريمة، فالله جل شأنه ستر عليها، لكنها تفضح نفسها.

ولم يتوقف زميلي الذي أن حالة من الأسى والغضب قد تمكنّت منه وراح يسألني:

ـ وهل تريد أن أواصل الحديث أم أتوقف؟

ـ كما تحب استاذي، كلّي آذان صاغية، وإن كان الحديث ذا شجون.

ـ وهل تريد قصصا أخرى؟

ـ منكم نستفيد

ـ لا بد أن تعرف أن مجتمعنا به العديد من الأوبئة، لكن هناك أيضا مواقف رجولية تستحق التقدير

ـ لا شك ولا ريب

ـ لقد جرت عدة حوادث في مجتمعنا، ليس بالضرورة جرت في حارة الحوامي، وجدنا أن البعض من أجل المال، أو من أجل المزيد من المال، أو من أجل مصالح معينة، يقترفون الجريمة، فمنهم من جعلوا من منازلهم بيوتا لمزاولة أعمال مخالفة للآداب العامة، فضلا عن الشرع المقدّس.. فأحدهم كان يجمع بين الرجال والنساء في منزله، وبعضهم أيضا جعل من منزله ناديا لمقارعة الخمر، أو لعب الميسر، أو حتى الزنا ـ أجلكم الله ـ

ـ وهل كان هذا بمرأى ومسمع من الناس؟

ـ الناس تعرف ذلك المنزل مشبوه، وإن الذين يقصدونه ليسوا أهل صلاح، بل هم في الغالب غرباء، كما ان العديد منهم يخرج من المنزل في ساعات متأخرة من الليل في وضع مثير للشبهة.. والحكومة بدورها لا تقوم بمداهمة موقع أو منزل ما لم تردها شكوى مبنية على معلومات سليمة، وفي حال لم يثبت ذلك الأمر ولم تثبت التهمة، فإن صاحب الشكوى تتم معاقبته ومحاسبته.

وكيف صارت المواقف التي وصفتها بـ "المشرّفة"؟

ـ إن حادثة جرت في إحدى الحارات، حيث قام وفد من الأهالي برفع شكوى على أحد المنازل مبدين ريبتهم وشكّهم في ذلك المنزل،

والحكومة بدورها تفاعلت مع الأمر واخضعته للمراقبة، والمراقبة الدقيقة، ولما ثبتت جديّة تلك الشكوك قامت بعملية المداهمة، وألقت القبض على عدد من الأشخاص من الرجال والنساء، في حالة تلبس بالجرم، إن لم يكن الزنا أو الفاحشة، فهو الخلوة غير الشرعية، فضلا عن تعاطي المسكر ولعب الميسر، وكان السبب في ذلك هو وقوف الأهالي ضد هذا الفعل وهذا التجمع.

ـ وهل الحوامي خلت من هذه الأوضاع؟

ـ لا يوجد مكان ليس به مقبرة، الحوامي لم تخل من هذا الوضع، أو وجود مثل هذه المواقع المشبوهة، لكنها محدودة هي الأخرى ـ كما هو حال الحارات الأخرى ـ فضلا عن ان ما حدث هو مجيء اسرة من خارج الحارة، واستأجرت منزلا وسكنت وهي التي مارست بعض الأفعال المشينة، وبمجرد أن المجتمع فطن لذلك قاوم الأمر بالقول والفعل، واستعان بسلطة الحكومة لمنع المنكر وهذا ماجرى.

هنا طلبت من زميلي التوقف عن الحديث، لأن هذا الأمر يبعث على التقزّز والقرف لدي، فلم أكن احب أن أسمع شيئا عن هذه المواضيع، وذلك لأني أعتقد أن هذه الموبقات هي سبب معاناتنا في الوطن العربي، وحتى أنهي الموضوع وأنقله الى مجال آخر قلت له:

ـ استاذي دعنا من حديث الإجرام والقتل وشرب الخمر ولعب القمار

قاطعني:

ـ اتريد الحديث عن جرائم السرقة؟

ـ لا أريد الحديث عن شيء إسمه الجريمة، فالمجتمع هنا عندي له صورة زاهية أرجو عدم تشويهها، وتلويث شكلها الجميل.

ـ أبدا الصورة هي هي، لن تتغير، فما نتحدث عنهم هم فئة قليلة لا يخلو منهم أي مجتمع.

ـ هذا صحيح

ـ وما نتحدث عنه لا يشمل الفئات الطاهرة التي هي مفخرة لهذا المجتمع، لكن سوف أنقل لك صورة أخرى عن فئات منحرفة في هذا المجتمع، عاشت وماتت على الخطأ

وتحت إصرار منه، وقناعة ـ على مضض ـ منّي ملت إليه، ولذت بالصمت، إذا به يقول:

ـ اما الحرامية في مجتمعنا فهم على أشكال، منهم من يسرق بيضة، ومنهم من يسرق جملا، ومنه من يسرق قوت يومه.. بعض السرقات تتم كنوع من الجهالة، مثلما يحدث لطفل يمر على مزرعة فيأخذ له حبة رطب أو تين أو لوز، وإذا تجاوز هذا الأمر ذلك الحد قام بعملية تخريب في المزرعة التي سرق منها، في المقابل تجد البعض يعمل على سرقة مزرعة بأكملها، كأن يدّعي ملكية مزرعة ليست له، قد تكون لأرامل أو أيتام أو ورثة، أو هي موقوفة لعمل معين .. ولعلّي أتذكر تلك الأرملة التي أوكلت أحدهم بأن يدافع عنها تجاه أبناء زوجها الذين جاؤوا للاستيلاء على أرض لها، تركها لها زوجها، وما أن استطاع إنهاء القصة لصالحها قام بنفسه بتحويل تلك الأرض إلى أملاكه الخاصة (الكثيرة)، بفعل وكالة حصل عليها من تلك المرأة المسكينة التي انتقلت من الرمضاء إلى النار.

هنا توصلت إلى حد الاشمئزاز، وشعرت بالغثيان، وطلبت منه الصمت والصمت والصمت، فلست أتحمّل سماع المزيد من القصص عن هذه الجرائم، لكنه أكتفى بالقول في ختام حديثه :"الحوامي بخير" وفهمت المعنى بأنني في أمان الله، من السرقة والقتل والاعتداء مادمت في الحوامي!

لحظة الوداع

الحوامي يوم جئتها كانت أشبه بقصة قصيرة، ابتدأت أحداثها منذ زمن، وسارت ثم سارت، حتى تعقّدت هذه القصة، ولم تنته، انتهى بعض أهلها، وغادر عنها من عاشها واكتوى بنار حبّها، ومنه أنا، لكنها لا زالت باقية، وستبقى بوجه آخر، وربما بوجوه أخرى.

لحظة الوداع لي مع هذه الحارة جاءت هي الأخرى متسلسلة، ضمن مجموعة أحداث، جعلتني أن أستقيل من مهمتي في عشق هذه الجميلة، التي من عاشها لا بد وأن يعشقها، ومن عانق ذرّات ترابها وجهه وانفه وعينه سوف لن ينسى أنه عاش في هذه الواحة.

نعم لقد ودّعت الحوامي وتركت أهلها وغادرت ورحت إلى مصر العروبة، مصر الكنانة، مصر الحياة، مصر أم الدنيا.. لكن الحوامي بقت في خاطري قطرة حبر عجزت كل العوامل المختلفة عن إزالتها، ليس لأن جمالها مثل مصر، الا أن التاريخ لم ينصف الحوامي كما أنصف مصر.

الحوامي المجزأة الى قطع من الورود والبساتين المقسّمة الى منابر، كل منبر يعطي حكمة معينة، وإلى مواقد ضوء كل موقد يصدر لونا مغايرا، صارت كتلة واحدة يربط بينها شوارع الإسفلت والاسمنت المسلّح.

صحيح أن الوحدة جميلة، لكنها لا تكون كذلك إلا إذا ألّفت بين الأعداء، ومنعت النزاعات، وألغت الأحقاد، بينما لو كان الجميع متفرقين في التوجه والسلوك، لكنهم موحدون في المبدأ والمصير، فلا شك ولا ريب أن ذلك أفضل مما لو تم توحيد كل الكيانات مع إلغاء الخصوصيات التي هي مثار ومجال الإبداع.

الحوامي صارت موحدة، ألغيت كيانات بقية الزقاقات والمزارع والبساتين والأحياء، وبدون حرية، وبدون رضا هذه الأحياء، فلم يكن أي حي يرغب في أن يذوب ضمن الكيان، بشرط التخلي عن مواضع الحسن والجمال، فما فائدة الوحدة إذا الغت الجمال وقضت على الذوق، فهل تسمى حياة تلك التي تسير بدون ذوق، وبدون جوانب جمالية.

هذا ماجرى للحوامي وما شهدته بإم عيني، فقد تحولت تلك المزارع والبساتين الى كتل من الاسمنت، وتجمعات مقصدرة لا قيمة لها من الناحية الجمالية، ولم تحقق سوى أن الجميع، أو الغالية توسعوا في المنزل والمسكن، فحققوا لأنفسهم سعادة دنيوية مؤقتة، لتأتي الأجيال القادمة مغلقة مقصدرة ملفوفة بجملة قيم مادية يصعب تجاوزها، أو حتى مقاومتها، فالخطأ إذا استمر العمل به بات مثل الخطأ النحوي الشائع، الذي يعد أفضل في التعبير من التعبير السليم المتروك.

إن التحوّل.. أو قل هو إخطبوط التحويل الاستهلاكي الذي تجرأ بكل صلافة على الذوق العام، الذي وجد نفسه في هذه المعركة وحيدا فريدا لا ناصر له ولا معين.. ومشكلة الذوق أن جنوده ضعفاء، وأنصاره عاطفيون، ولو كانوا غير ذلك لما كان ذوقا ولما قمنا بتسميته بهذا التسمية.

ابتدأ الانقلاب مع أول قرار من المحكمة المعتمد على توصيات وملاحظات وتقارير أكدت أن تلك المزارع التي هي كتلة الحوامي ونقطة قوتها، باتت غير صالحة للحياة، لأن أهلها لم يعودوا قادرين على تحمل المسؤولية، فلا أحد يريد الزراعة، وفلا عائد يذكر منها، لذلك باتت المزارع مناطق بور، بل مأوى لجملة من مخلوقات الله غير الجميلة، وغير المفيدة، وغير المخلصة للحياة العامة، لذلك توصل الجميع إلى قرار واحد عدّ قرارا صائبا، فانثالت المعاول أولا على النخيل، واحالت الفسيل والفسيل العود وباشلاما الى قطع أراض تصلح لأن تبنى كمنازل لا كمزارع وحقول، فالمجتمع يريد ان يتعاطى مع الحياة العصرية، فالبلاد نفطية، فمن يعمل في شركة

ارامكو أو يعمل في إحدى الشركات الوليدة لها، أوالمساندة لها، تمنح رواتب مذهلة، لا تقارن بما يحصل عليه ابن الحوامي أو ابن تاروت أو ابن السعودية ككل من البحر والنخل والزرع والضرع.

ولأن البلاد نفطية فقد توفر السيولة المالية في أيدي الناس، فصندوق التنمية العقارية بات يمنح قروضا للسكن في فترة لا تستغرق أكثر من اسبوع ليحصل السعودي على مبلغ يبني به منزله الجديد، وأين يكون هذا المنزل، لن يكون في غير المناطق الزراعية التي تمتلك طيبة لا تعادلها طيبة، فهي التي استقبلت الماء والسماد والزرع وأعطت ما أعطت، هاهي اليوم على استعداد لأن تصبح عروشا تتزين بأي زينة يريدها الازواج الجدد، فصارت المزارع مناطق سكنية، تربطها طرقات وشوارع معبدة بالأسفلت، فكوّنت بمجموعها كتلة سكنية ذات كثافة وذات قيمة مجتمعية إسمها "الحوامي" لكنها بجمال متواضع وبأناقة تخضع كليا لكل عوامل التعرية.

لقد قتلت تلك الحوامي التي تقاوم كل عوامل التعرية، وتزهو كل صباح بجمالها وحسنها ودلالها، لكنها اليوم جميلة لكن جمالها مؤقت يحتاج بعد فترة وأخرى لأن تضيف لمسة أخرى كي تتزين مرة بعد مرة..

هذه اللمسة استمرت ولكن بدلا من المعاول والفؤوس جاءت الرافعات التي تزيل الثابت من مستقره، وتذلل الصعاب أمامها، فلم يعد هناك نخيل ولم يعد لدى شباب الحوامي فرصة لقضاء وقت جميل وممتع في عين أم عريش، ولم تعد باشلاما مزهرة ولا ممتعة بما تقدمه من منتجات، كلها صارت تحت الرماد، فمن البداية اسقطتها الفؤوس ثم الرافعات، ليأتي ابناء البلاد أيضا ليقوموا بدور آخر وهو استخراج ما تقدمه كل نخلة بعد وفاتها وهو ثمار او طعام (الجدب)، أي أن قلب النخلة يؤخذ ليؤكل طازجا، لا يحتاج الى سلق أو قلي أو شواء، وأما الباقي فيتم حرقه أو تقطيعه ليكون جذوعا

تغطى بها قبور الآدميين.. هذه هي النخلة التي لا تنسى أبناءها حتى في موتهم، لم تنج من جور المعاول والفؤوس، جور التحول من المجتمع الزراعي الى مجتمع آخر، لا استطيع أن القول عنه صناعي ولا تقني ولا .. ولا..

لقد تغيّرت الصورة لدي، ووجدت بأن وجودي في هذه الحياة، في هذه المنطقة لاداعي له، فالموجود لا بد وأن يرحل، فكنت أنا من الراحلين، وكما رحلت النخيل مع أهليها والأبداع المهني مع أهلي، وجدتني لابد وأن ارحل بعد ان شهدت النقلة، التي لايفتأ مثقفو الزمن الجديد بوصفها بـ "الطفرة".

النخيل ـ كما سبق القول ـ احيلت إلى التقاعد القسري، لأن اهلها لم يعودوا قادرين على التعامل معها، فليس لدينا بعد الآن من يتمكن امتطاء نخلة طويلة، فضلا عن أن يعمل بهذه المهنة من الصبح إلى الليل، اما بالموت أو بالرحيل، اوبالبحث عن مهنة أخرى، ذات عائد أفضل، وراحة أكثر ووضع اجتماعي وثقافي لا يقارن.

في البداية جاءت الطفرة ووجدت من أهل الحوامي من يتجاوب معها، فنقلوا الماضي مع الحاضر، فصار لدينا العمال المهرة، فصرنا محافظين على أصالتنا العمالية، لكن هذا الأمر انقلب ـ هو الآخر ـ بفعل تطورات الزمن الى أمر من الماضي، إذ أن الكثير من الأعمال باتت تدار بأيد عاملة وافدة، بل حتى ما تبقى من الزراعة صارت تعتمد على العمالة الوافدة، ولسان حال أهل الحوامي يقول بأننا إذا كنا في وقت ما نبني بيوتنا، ونخيط ملابسنا، ونكهرب ونضيء شوارعنا، ونمدد مواسير مياه منازلنا، بل صار لدينا النجار والميكانيكي وما شابه ذلك .. لكن التحول الذي جرى أن كل هذه المهن باتت بأيد أجنبية فصرنا نعتمد على الأجانب في كل شيء..

بعد هذه الطفرة، أو التحوّل وجدت نفسي غريبا عن أهل الحوامي.. فقد شهدت التحول في الحوامي، وكان تحولا جذريا، وسريعا، فالأطفال الذين يلعبون جميع الالعاب الي تنعكس على

اجسادهم وعقولهم نجده في واقع الأمر لا يلعبون سوى الالعاب الالكترونية التي لاتحمل معها سوى السمنة وما تحمله من أمراض.. وبدلا من الأكل في المنازل، وما تطبخه الأمهات والزوجات تغيّرت الطباع الغذائية، فصار الناس يأكلون وجبات مستوردة، خصوصا في فترات الليل فعرف الناس البيتزا والهامبرجر والباستا وما شابه ذلك وكلها منتجات جميلة ذات طعم رائع، من يأكلها يشعر بنشوة قد لا تتوفر في الوجبات البطيئة المنزلية.. لكنها تبقى بنت الضرّة الإيطالية والإسبانية

والشاب الذي كان ينحت الصخر، ولا يأخذ من والده شيئا، ويرى أن من العيب مد اليد لأحد، وفي مقدمتهم الوالد والوالدة، هذا الشاب بات من موضة الزمن الماضي، فجاء جيل اتكالي يعتمد على ما يوفره أبوه وأمه، مع العلم أنه متعلم يتحدث لغة اجنبية ويتعاطى مع الحاسب الآلي.

والثقافة، وما أدراك ما الثقافة، باتت في عرض آخر، فالتلفاز الذي لم يكن يعمل سوى بضع ساعات في اليوم، ولم يكن موجودا في الا بيت أو بيتين، بات يبث طوال الساعة، وفي وقت لم نكن أحد يشاهد الا بضع قنوات وجد هؤلاء أنفسهم أمام عالم آخر، كل شيء بات في المتناول،

لقد تركت الحوامي امام موجة من التحديث في الشكل، لكنها ـ من وجهة نظري ـ عملية تغريب في المضمون، تركتها وعدت الى مصر محملا بجملة من الذكريات التي لا تنسى، وتركتها وانفصلت عنها أيضا، وأنا اراها تهوى عالما آخر، عالما مليئا بالتنقلات السريعة والتقلبات المزاجية والثقافية والعملية اليومية بصورة، ربما لم تحدث مع مجتمعات أخرى، فالطفرة النفطية جاءت بمعطيات أخرى، وقيم غريبة على هذا المجتمع، بعضها خاطئ وبعضها سليم وضروري أيضا.

لقد تركت الحوامي وأنا أرى تلك الوجوه التي تشرفت بتعليمها كل يملك سيرة وسيّارة خاصة به، وقد كنا نقطع المسافات في الحر والبرد مشيا على اقدامنا، لأن هؤلاء باتوا في وضع مادي أفضل فمنهم من أصبح مدرسا وصار زميلا لنا، ومنهم من أصبح موظفا حكوميا أو أهليا ومنهم من ابتعث إلى الخارج للدراسة في البدان اكثر تقدما.

تركت الحوامي، وقد تبدلت بعض القيم والعلاقات، فظهرت موجات اجتماعية لا أدري من أين أتت، فالحوامي التي تنام مبكرا وتصحو مبكرا لا يسمع لها أي حسيس أو همس، عاش الناس ـ وانا منهم ـ لم نسمع بأن ثمة شخصا ابتلي بإدمان المسكرات فضلا عن المخدرات.. تركت الحوامي وقد سمعت ـ واعوذ بالله مما سمعت ـ بأن هناك من طالته هذه الآفة، بل أن البعض قام بجريمة أعظم وهي الترويج لهذه الآفة، التي لم يكن يعرفها أحد إلا في افلامنا المصرية وبصورة محدودة.. لقد كانت البيوت يوم جئتها مفتوحة من السهل أن تسرق، أو تحرق، لكني تركتها موصودة بأقفال حديدية غريبة لكنها لم تنج من السراق والحرامية .. "حرامية في الحوامي"!!

جئت الحوامي وعشت بين أهلها، وسمعت ذكريات الكبار ووقفت على آمال الصغار، واطلعت على بعض مشاكل الفتيات، هذه الحوامي التي خرجت عن بكرة ابيها لمجرد أن جاءت نسوة من البحرين لسن متحجبات باتت تسمع قصة بعد قصة حول انحرافات اخلاقية غير سليمة وغير لائقة ويصعب التفصيل حولها.. تلك الحوامي التي خرجت عن بكرة أبيها أيضا حينما رأت اثنين تم اقتيادهما من أحد المزارع وهم يلعبون الميسر، الكل مستغرب، قد اصابته الدهشة من المنظر ومن الموقف، باتت تشهد قصصا وأحداثا تتم في الخفاء.

لكني مع ذلك، خرجت من الحوامي ـ والله الشاهد ـ وأنا أرقب جيلا ذا شأن في الحياة، جيلا يحمل طموحا قويا، جيلا نمت علاقته مع الثقافة والمعرفة، جيلا يحمل تطلعات المستقبل، لا أظن

أن حالات سلبية هنا وهناك ستؤثر على هذا الجيل.. تلك صورة لأبرز أيامي في الحوامي ..

الحوامي ذكريات لا تنسى وتاريخ بدأ ولم ينته بعد.